الفصل التاسع

أعلام الكتاب

١

ابن المقفع[1]

فارسى الأصل، اسمه روزبة بن داذويه، كان أبوه من قرية إيرانية تسمى جور، نزل البصرة، وظل على دينه مجوسياً مانوياً، غير أنه استعرب سريعاً، لاختلاطه بمواليه آل لأهتم التميميين، وهم يشتهرون باللسن والفصاحة والخطابة، ولم يلبث أن عمل في دواوين الخراج للحجاج، وظهرت عليه خيانة في أموال الدولة، فضربه الحجاج ضرباً مبرحاً نقعت (يبست) منه يده، فسمى من حينئذ المقفع، ولم يسلم، بل مات على دينه، وعليه نشأ ابنه، ويظهر أنه عنى عناية شديدة بتأديبه، حتى أتقن اللغتين الفارسية والعربية، وقد مضى يتكسب بصناعة أبيه، فاشتغل، في دواوين العراق آخر زمن بني أمية، إذ كتب لعمر بن هبيرة والى العراق لهشام بن عبد الملك، وكتب لابنه يزيد في ولايته العراق لمروان بن محمد، ولابنه الثانى داود في ولايته على كرمان بإيران وأفام منهما أموالاً كثيرة. ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن على عم المصنور ووالیه على البصرة، ولأخيه عيسى بن علية والى الأهواز وعلى يديه أعلن إسلامه وتكنى بأبى محمد، ويقال إنه حين حاول اعتناق الإسلام طلب إليه عيسى أن يؤجل ذلك إلى الغد حتى يكون إعلان إسلامه في حفل عظيم، وحدث أن حضر طعام العشاء،

---

١ انظر فى ترجمة ابن المقفع وأخباره الفهرست ص ١٧٢ والجهشيارى ص ١٠٣، ١٠٩ وفى مواضع متفرقة وأمالى المرتضى ١/ ١٣٤ وثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢ و ٤٧ وزالباين والتبيين ١/ ١١٥ وفى مواضع متعددة (انظر الفهرس) والحيوان ١/ ٧٦، ٦/ ٣٣٠ ومروج الذهب للمسعودى ٤/ ٢٤٢ واعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨ وزهر الآداب ١/ ١٨١ (طبعة الساسى) ١٨/ ٢٠٠ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق) ص ٤٠٨ وخزانة الأدب للبغدادية ٣/ ٤٩٥ وتحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليبزج) ص ٧٦ ومقدمة كليلة ودمنة لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف) وضحى الإسلام لأحمد أمين ١/ ١٩٥ ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين (طبع دار المعغارف) ص ٤٦.

فلاحظ عيسى أنه يأكل ويزمزم، أوة بعبارة أخرى يدعو بادعية المجوس، فسأله عيسى: أتصنع ذلك وأنت على نية الإسلام، فأجابه: كرهت أن أبيت على غير دين. وظل بعد إعلانه الإسلام يعمل في دواوينه.

واتفق أن خرج عبد الله بن على عم المنصور ووالیه على الشام، إذ أعلن ثورته عليه، غير ان جيوش المنصور هزمته، ففر إلى أخويه سليمان وعيسى، فطلبه المنصور منهما، فأبيا أن يسلماه إليه إلا إذا كتب له أماناً، فقبل ما عرضاه، وكلفهما كتابته، فأمرا ابن المقفع أن يكتبه، فكتبه، وتشدد فيه تشدداً أغضب المنصور وأحفظه وملأه موجدة، إذ طلب إليه أن يكتب في أسفل امان هذا التوقيع[1]:

"وإن أنا نلت عبد الله بن على أو واحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل، فأنا نفى من محمد بن على ابن عبد الله، ومولود لغير ردشه، وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءة منى، ولا بيعة لى في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين. وهو متبرئ من الحول والقوة، ومدع إن كان، أنه كافر بجميع الديان، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرف والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها. وكتبت بخطى، ولا نية لى سواه، ولا يقبل الله منى إلا إياه، والوفاء به".

واحتدم المنصور غيظاً حين قرأ هذا المان وسأل عن كاتبه، فقيل له ابن المقفع كاتب عيسى بن على عمك، فقال: أما أحد يكفينيه؟ وأوعز إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة حينئذ أن يقتله، وتصادف أن كان يضطغن عليه، فانتهز فرصة قدومه إليه ذات مرة، وأمر بتنور، فملئ وقوداً حتى إذا حميت ناره أخذ يقطعه جزءاً جزءاً ويرمى بكل جزء في التنور حتى أتى عليه. ويقال إن المنصو إنما أمر بقتله لما ثبت عنده من زندقته وكيده للإسلام، ويبدو أن التعليل الأول لمقتله هو الصحيح، لما صعب في صيغة الأمان على المنصور تصعيباً امتهنه فيه كرامته ووطئها بالأقدام، إذ طلب إليه أن يكتب بخط يده أنه إن غدر بغعمه أو باحد ممن معه فنساؤه طوالق وعبيده أحرار ودوابه محرمة عليه والمسلمون في حل من بيعته بل عليهم أن يحاروبه حتى يعطى عن يد وهو صاغر، وأيضاً فإنه إن فعل يكون كافراً خارجاً من جميع الأديان. فكان طبيعياً أن يثور المنصور لكرامته وأن يوعز إلى سفيان بقتله، ويقول

---

١ الجهشيارى ص ١٠٤

الجاحظ إن ابن المقفع أغرى عبد الله بن على بالمنصور، ففطن له وقتل، وأغلب الظن أنه لا يريد بإغرائه لعبد الله بن على سوى صيغة هذا المان المشئوم، واختلف الرواة في السنة التي قتل فيها، فقيل سنة ١٤٢ وقيل سنة ١٤٣ وقيل سنة ١٤٥ للهجرة.

وليس معنى استظهارنا أن يكون الأمان السالف هو اسبب الحقيقى في قتل ابن المقفع أننا ننفى عنه الزندقة، فقد شهد بها كثيرون من معاصريه ومن جاءوا بعده، وكان المهدي يقول: "ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع"[١] ويقول المسعود: "أمعن المهدي في قتل الملحدين.. لما انتشر من الفارسية والفهلوية غلى العربية"[٢] ويقال إنه مر ببيت نار للمجوس بعد إسلامه، فلما رآه أحس بحنين شديد إلى دينه المانوى القديم، وأنشد بيتى الأحوص[٣]:

يا بيت عاتكة الذي أتعزل	حذر العدا وبك الؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدود وإننى	قسماً إليك مع الصدود لأميل

وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أنه ظل على اعتقاده المانوى القديم فهو يظهر الإسلام ويضمر مانيوته، وقد مضى ينقل ديانات قومه المجوسية ومذاهب الملحدين مثل ابن ديصان ومرقيون، مما جعل العرب يتنبهون إلى غايته من هذا النق لوةما كان يتصل به من ترجمة الحخكم الفارسية، فقالوا إنه إنما كان يريد على الأقل ببعض ترجماته وتصنيفاته معارضة الذكر الحكيم، وعرض لذلك الباقلانى فقال: "وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة، وهى كتابان: أحدهما يتضمن حكماً منقولة.. والآخر في شئ من الديانات[٤] " وقد ألف القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة كتاباً في نقض زندقته سماه "كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله". وذكر في أوائله أن ابن المقفع وضع كتاباص عاب فيه المرسلين وافترى الكذب على رب العالمين[٥]، ولذلك تصدى له يهدم مزاعمه هدماً. وشك أحمد أمين في هذا الكتاب الذي نسبه ابن

---

١ أمالى المرتضى ١/ ١٣٥

٢ روج الذهب ٤/ ٢٤٢

٣ أمالى المرتضى ١/ ١٣٥

٤ إعجاز القرآن (طبع مطبعة الإسلام) ص ١٨

٥ كتاب الرد على الزنديق اللعين (نشر جويدى) ص ٨

طباطبا إلى ابن المقفع ن ولا ينفى هذا الشك عنه زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن تلاهم ممن قرءوا كتاباته، وكثير منها سقط من يد الزمن.

وكان- مع زندقته- نبي لالخلق وقوراً يترفع عن الدنايا ولا يجعل للهوى سلطاناً على عقله، وكان يأخذ نفسه بكل ما يمكن من خصال المروءة والشعور بالكرامة، ويقول الجهشيارى إنه "كان سرياً سخياً يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه.. وكان يجرى على جماعات من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة إلى الألفين في كل شهر". وتروى عنه حكايات مأثورة تدل على كرمه الفياض، كما تروى عنه أخبار تدل على دقة حسه، من ذلك ان عيسى بن على دعاه يوماً للغداء فاعتذر بأنه مزكوم، والزكمة قبيحة الجوار، مانعة من عشرة الأحرار[1]. وكان يلفت معاصريه بأدبه الجم، فسأله سائل: من ادبك؟ فقال: نفسى! إذا رأيت من غيرى حسناً أتيته، وإن رأيت قبيحاً أبيته". وكان يقدر الأخوة والصداقة حق قدرهما، وقد بني عليهما كثيراً من حكمه ونصائحه في الأدبين: الصغير والكبير. وكان ذكياً ذكاء مفرطاً حتى قال ابن سلام: "سمعت مشايخنا يقولون: إن لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع"[2]. وكان يرى أن الذكاء لا يعمر القلوب ولا يثمر الثمرة المرجوة بدون العلم، وإلا كان كالأرض الطيبة الخراب. ولعله لذلك دأب على التثقف بكل ما استطاع من الآداب الفارسية وما ترجم إلى لغته من الهندية وكذلك ما ترجم إليها من اليونانية زمن كسرى أنو شروان.

وبذلك كان ابن المقفع يجمع بين الثقافات العربية والإسلامية والفارسية والهندية واليونانية، وقد نقل إلى العربية عن لغته خير ما عرف من الثقافات الأخيرة، وكان للثقافة الفارسية الحظ الأكبر، فقد نقل عنها كما مر بنا في غي هذا الموضع كتاباً في تعاليم مزدك وكتاب "خداى نامه" وهو في سير الملوك الإيرانيين، وعليه اعتمد افردوسى في نظم "الشاهنامة" وكذلك نقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان. ونقل عنها في أنظمة الملك وتدبير السياسة والحكم كتاب "آيين نامه" ورسالة "تنسر" وفى عيون الأخبار منها ومنا كتاب التاج نقول مختلفة. وكان في الفهلوية ادب أخلاقى كثير نما في بلاط الساسانيين، وكان يراد به إلى تثقيف الفرس بما يوضح لهم سبل الحياة العامة عن طريق الأمثال وما تشفع به من الحكم، ونقل من ذلك تابن المقفع مادة غزيرة في الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة

---

١ أمالى المرتضى ١/ ١٣٦

٢ مراتب النحو بين لأبى الطيب اللغوى (طبعة مكتبة نهضة مصر) ص ٢٨

ورسالة الصحابة. وعمد إلى خير أثر في لغته للهنود وهو كتاب كليلة ودمنة فنقله إلى العربية، كما نقل عن لغته بعض ما ترجم إليها عن اليونانية من كتب أرسطو في المقولات والقياس المنطقى.

وما نقله عن أرسطو من لغته مفقود، ولم يصلنا ما نقله عن الفهلوية من الكتب الخمسة الأولى إلا ما اقتبسه ابن قتيبة مما يتصل ببعض وصايا الفرس السياسية وأنظمتهم في الملك والقضاء وفنون الحرب. ونحن نقف قليلاً عند الأدبين الصغير والكبير واليتيمة ورسالة الصحابة.

والأدب الصغير رسالة قصيرة[1] في نحو ثلاثين صحيفة تتضمن طائفة من الوصايا الخلقية والاجتماعية التي ترشد الناس إلى صلاح معاشهم في أنفسهم وفى علاقاتهم بعناصر المجتمع من أهل السلطان ومن الأصدقاء ومن يغرهم، ونراغه يقول في أوائلها: "قد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً، فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجليه أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق" ومن قوله في تضاعيفها:

"على العاقل أن لا يستصغر شيئاً من الخطأ في الرأى والزلل في العلم والإغفال في الأمور. إن من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيراً وصغيراً، فإذا الصغير كبير، وإنما هي ثلم[2] يشملها العجو والتضييع، فإذا لم تسد أوشكت أن تنفجر بما لا يطاق. كلام اللبيب وإن كان نزراً أدب عظيم، ومقارفة[3] المأثم وإن كان محتقراً مصيبة جليلة. لا يمنعنك صغر شأن أمرئ من اجتباء ما رأيت من رأيه صواباً، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً، فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها. أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك. حق على العاقل أن يتخذ مرآتين فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه فيتصاغر بها، ويصلح ما استطاع منها، وينظر من الأخرى في محاسن الناس فيحكيهم بها ويأخذ ما استطاع منها. عمل الرجل فيما يعلم أنه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف. من أشدي عيوب الإنسان خفاء عيوبه عليه فإنه من خفى عيبه عليه خفيت عليه محاسن غيره، ومن خفى عليه عيب نفسه ومحاسن غيره فلن يقلع عن عيبه الذي لا يعرف، ولن ينال محاسن غيرهع التي يبصرها أبداً. لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذي قد علم دواء نفسه، فإذا هو لم يتداو به لم يغنه علمه. والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال

---

١ انظر الأدب الصغير فى رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ وما بعدها.

٢ ثلم: جمع ثلمة وهى الخلل

٣ مقارفة: ارتكاب

كالأسد الذي يهاب وإن كان عقيراً[1]، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وإن طوق وخلخل"[2].

وأكثر وصايا الأدب الصغير على هذا النحو من القصر وقلما يطرد فيها السياق. أما الأدب[3] الكبير فرسالة أكثر طولاً إذ نمتد إلى نحو مائة صحيفة، موزعة بين موضوعين كبيرين، هما السلطان وما يتصل به من السياسة والحكم، والصداقة وما يتصل بها من صفات الصديق الصالح، ونراه يصرح في تقديمه لهذه الرسالة بما صرح به من أوائل الأدل الصغير من أنه يفيد في وصاياها من أقوال الأسلاف القدماء، إذ يقول: "منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم، فيكون كأنه إياهم يحاور ومنهم يستمع.. ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ٧ في صفة له مقالاً لم يسبقوه إليه". ويشير مع ذلك إلى أنه بقيت في وجوه الأدب وضروب الأخلاق أشياء من لطائف الأمور تشتقها الفطن السليمة من حكم الأولين وأقوالهم، وأنه سيضمن كتابه أو رسالته منها أطرافاً. ومعنى ذلك أن وصايا الرسالة إما نقل عن القدماء مما قرأه في الأدب الساسانى السياسى والأخلاقى، وإما استنباطات وصل إليها عليهديهم، وهو يستهل رسالته بالحديث عن أصول الأدب ويريد به التهذيب الخلقى والاجتماعى والسياسى، ثم يورد بعض الوصايا لمن يتقلد شيئاً من أمور السلطان وينصحه فيما يتولاه أني رضى ربه ومن فوقه من اصحاب السلطان ومن تحته من صالحى الرعية، ويقول له: لا تلتمس رضا الناس جميعاً، لأن ذلك شئ لا يدرك، إذ بينهم من رضاه الجور ومن رضاه الضلالة، فيكفيك رضا الأخيار منهم والعقلاء، ومن طريف ما يوصيه به قوله:

"لا تتركن مباشرة جسيم أمرك، فيعود شأنك صغيراً، ولا تلزم نفسك مباشرة الصغير فيصير الكبير ضائعاً، واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شئ ففر عنه للمهم.. وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجتك وإن دأبت فيهما، وأنه ليس إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدكم إلى نصيبه من الدعة فأحسن قسمتها[4] بين دعتك وعملك، واعلم أنك ما شغلت من رأيك في غير المهم أزرى بالمهم.. وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة. واعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من

---

١ عقيراً: جريحاً

٢ خلخل: وضع فى رجله خلخال

٣ انظره فى رسائل البلغاء ص ٣٩ وما بعدها

٤ قسمتها: أى قسمة الليل والنهار٧

أحدهم الغضب إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح[1] والتقطيب في غير من أغضبه، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له، والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته، وشدة المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك. ثم يبلغ به الرضا إذا رضى أن يتبرع بالأمر ذى الخطر[2] لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، ويعطى من لم يكن يريد إعطاءه ويكرم من لا حق له ولا مودة فاحذر هذا الباب الحذر كله".

ويسترسل ابن المقفع في منثل هذه الوصايا للوالى، ويتحدث عن صحبة السلطان وواجباتها وآدابها وكذلك صحبة الولاة والحكام، ثم ينتقل إلى الصديق والصداقة، ويصور الخلال التي ينبغى أن يتصف بها في رأيه الصديق الحق حتى ليرى من واجب الصديق على الصديق أن يبذل له ماله ودمع وأن يلقاه بالتواضع والحياء وأن يمد له يد العون في الشدة. ويستطرد إلى الحديث عن جار السوء وعشير السوء وجليس السوء، كما يستطرد إلى الحديث عن العدو وما ينبغي من استعمال الدهاء معه والعمل على القضاء عليه أو اجتنابه والبعد عنه، ويفيض في الأخلاق الحميدة والأخلاق السيئة التي تنفر الناس من صاحبها فضلاً عن الصديق، ومما يسوقه في الطرفين قوله:

"انظر من صاحبت من الناس من ذى فضل عليك بسلطان أو منزلة ومن دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والإخوان فوطن نفسك في صحبته على أن تقبل منه العفو، وتسخو نفسك عما اعتاص عليك مما قبله غير معاتب ولا مستبطئ ولا مستزيد، فإن المعاتبة مقطعة للود، وإن الاستزادة من الجشع، وإن الرضا بالعفو والمسامحة في الخلق مقرب لك كل ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة.. ولا تلتمس غلبة صاحبك والظفر عليه بكل كلمة ورأى، ولا تجترئن على تقريعه وتبكيته بظفرك إذا استبان وحجتك إذا وضحت. وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضى حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم والوعى لما يقول.. واعلم أن المستشار ليس بكفيل وأن الرأى ليس بمضمون، بل الرأى كله غرر[3]، لأن أمور الدنيا ليس شئ منها بثقة، ولأنه ليس شئ من أمرها يدركه الحازم إلا وقد يدركه العاجز، بل ربما أعيى الحزمة[4] ما أمكن العجزة، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعذلاً بأن تقول: أنت فعلت هذا بى، وأنت أمرتنى، ولولا أنت لم افعل، ولا

---

١ الكلوح والتقطيب:/ العبوس

٢ الخطر: الشرف

٣ غرر: خداع

٤ الحزمة: جمع حازم

جرم لا أطيعك في شئ بعدها، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة. وإن كنت أنت المشير، فعمل برأيك أو تركه فبدا صوابك فلا تمتن ولا تكمثرن ذكره إن كان فيه نجاح، ولاى تلمه عليه إن كان استبان في تركه ضرراً بأن تقول: ألم أقل، ألم أفعل، فإن هذا مجانب لأدب الحكماء.. واعلم أن من تنكب المور ما يسمى حذراً، ومنه ما يسمى خوراً فإن استطعت أن يكون تجنبك من الأمر قبل مواقعتك إياه فافعل، فإن ذلك هو الحذر، ولا تنغمس فيه ثم تتهيبه، فإن ذلك هو الخور، وإن الحكيم لا يخوض نهراً، حتى يعلم مقدار قعره".

وردد محمد كرد على في نشرته للأدب الكبير بكتابه رسائل البلغاء بين هذا العنوان وعنوان ثان هو الدرة اليتيمة، وهما كتابان لاى كتاب واحد، كما يشهد بذلك كلام الباقلانى عن اليتيمة الذي سبق أن نقلناه عنه، وفيه أنها قسمان قسم في الحكم المنقولة، وقسم في شئ من الديانات، وليس في الأدب الكبير حديث عن الديانات، وإنما هو حديث كما رأينا من السلطان والصداقة. ومما يقطع بأن الدرة اليتيمة ليست هي الأدب الكبير أن ابن طيفور احتفظ في كتابه "اختيار المنظوم والمنثور" بقطعة طويلة من صدرها لا توجد في الأدب الكبير، ونرى أبن المقفع يذكر فيها أن الناس قد سألوه أسئلة، وأنه سيجيبهم عما سألوا، واحتفظت القطعة بالسؤال الأول، وهو يدور على الزمان، وقد أجابهم بأن الزمان الناس، وهم رجلان، وال ومولى عليه. وقسم الأزمنة على أساس الوالى والرعية أربعة أقسام: قسم هو خير الأزمنة لصلاح الحاكم والمحكومين، وقسم ثان يليه وفيه يصلح الحاكم ويفسد المحكومون، وقسم ثالث يصلح فيه المحكومون ويفسد الحاكم، وقسم رابع هو شر الأزمنة لفساد الحاكم والمحكومين جميعاً، وفى الأول يقول[1]:

"خيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعى والرعية، فكان الإمام مؤدياً إلى الرعية حقهم: في الرد عنهم والغيظ على عدوهم، والجهاد من وراء بيضتهم[2] والاختيار لحكامهم، وتولية صلحائهم، والتوسعة عليهم في معايشهم، وإفاضة الأمن فيهم، والمتابعة في الحق لهم، والعدل في القسمة بينهم، والتقويم لأودهم[3] والأخذ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم. وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وترك المنازعة في أمره، والصبر عند مكروه طاعته، والمعونة على أنفسهم،

---

١ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٤٩

٢ البيضة: حوزة كل شئ وساحة، القوم والمراد بلدهم

٣ الأود: الأعوجاج

والشدة على من أخل بحقه وخالف أمره، غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا أبناءهم، ولا لابسين[1] عليه أحدا. فإذا اجتمع ذلك في الإمام والرعية تم صلاح الزمان، وبنعمة الله تتم الصالحات".

ويزهر أن الأسئلة الأولى في الرسالة كانت تخوض في السياسة، وتلتها أسئلة كانت تخوص في شئون الديانات، ولعل ذلك هو الذي جعل الدرة اليتيمة تسقط من يد الزمن، وكأن الناس تحاموا تداولها. أما رسالة الصحابة[2] فهى في صحابة السلطان وبطانته ومن يستعين بهم في حكمه من جنده وما ينبغي له في سياسته إزاء رعيته، كتب بها إلى المصنور، وكأنه يضع له دستوراً للحكم، وقد استهلها بمدحه وبيان فضله على خلفاء بني أمية وما تحلى به من تشجيع ذوى النصح والرأى على الإدلاء بنصائحهم وآرائهم فيما يعود على الأمة بالنفع والخير. ثم أخذ في تعصوير الدستور الذي يريد من المصنور اتباعه في حكمه، واصفاً حسن سياسته، إذ اقتلع الولاة والأعوان المفسدين، واجتمعت حوله قارب الرعية لما اشتمل عليه من حسن العفو واللين. ولم يلبث أن تحدث عن الجند، ومعروف أن الجند حينئذ كانوا خراسانيين في جمهورهم، ومن ثم أخذ يشيد بجند خراسان وأنه لم يدرك مثلهم في افسلام لما امتازوا به ن الطاعة والفضل والعفاف والكف عن الفساد والإعطاء عن يد للولاة والحكام، ومن أجل ذلك كانت تجب العناية بهم بوضع قانون لهم، يوضح في دقة واجباتهم وما ينبغي أن يفعلوه وما ينبغي أن يذروهويتجنبوه، وأن مثلهم مثل الخليفة ينبغي أن يطيعوا الدين وأوامره ونواهيه، كما يطيعون الخليفة في الأحداث المتجددة من إعلان حر بأو مهادنة أو تنظيم أمور حادثة. ومما ينظر فيه لصلاح الجند أن لا يولى أحد منهم على شسئ من الخراج فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة، إذ يخرجهم عن وظيفتهم الحربية، ويشغلهم بأمور المال والدراهم والدنانير. ولفت المنصور إلى أن من عليهم من هم خير من قادتهم. ولذلك ينبغي أن يعيد النظر فيمن جعلهم منهم قادة، فيرد بعضهم عن القيادة ويوليها الكفء المجهول من الجند. وطلب إليه أن يعنى بتعليمهم القرآن والتفقه في السنة وأن يتحلوا باغلأخلاق الفاضلة من الأمانة والعفاف والتواضع والبعد عن الهوى وأن يجتنبوا الترف في المطعم والملبس، كما طلب إليه تعيين مواقيت محددة لأرزاقهم ورواتبهم وأن يتقى أحوالهم بثقات لا يكتمون عنه منها شيئاً. وانتقل ابن المقفع من الجند إلى أهل العراق عامة وأهل البصرة والكوفة خاصة، لأنهم شيعة العباسيين. وتحدث عن تفوق أهل العراق على غيرهم في الفقه والعفاف والعقول والفصاحة، وهم لذلك خير من يستعين بهم المنصور في دولته، وكان الأمويون قد حرموهم من تدبير

---

١ لابسين هنا: مقدمين، وأصل لسبس القوم التملى بهم زمناً

٢ انظر فى هذه الرسالة رسائل البلغاء ص ١١٧ وجمهرة رسائل العرب ٣/ ٢٥

الحكم مع أنهم أهله ومستحقوه. وأوصاه- كما أوصاه في الجند- أن يتتبع خيارهم من المجاهيل عنده، فيسند إليهم شئون الدولة، ويرد عنها من وقع فيهم الخطأ وزمن اختيروا دون تثبت وفحص كاف. وسرعان ما يعرض لفوضى القضاء الناشئة عن كثرة الاختلافات بين الفقهاء، حتى ليحكم في القضية الواحدة بحكمين مختلفين أو أحكم مختلفة لا في البلاد المتباعدة بل في البلد الواحد، واقترح لدرء هذه الفوضى أن يضع المنصور قانوناً يلتزمه القضاة على اختلاف منازعهم الفقهية، سواء أكانوا ممن يقدمون الراى ويعتدون به أو كانوا ممن يقدمون السنة ويعتدون بها، ويسخر من الأخيرين، إذ تمادوا في الأخذ عن التابعين وخلفاء بني أمية مسمين ذلك سنة، مما دفع إلى هذا الاضطراب الواسع في الأقضية، يقول:

"ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين (البصرة والكوفة) وغيرهما من الأمصار والنواحى اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال، فيستحل الدم والفرج بالحيرة، وهما يحرمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة، فيستحل في ناحية مها ما يحرم في ناحية أخرى. غي أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم، يقضى به قضاة جائز أمرهم وحكمهم، مع أنه ليس ممن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لج بهم العجب مما في أيديهم والاستخفاف بمن سواهم، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يتبيغ[1] بها من سمعها من ذوى اللباب. أما من يدعى لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه سنة، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول: هريق[2] فيد دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده، وإذا قيل له: أى دم سفك على هذه السنة التي تزعمون؟ قالوا: فعل ذلك عبد الملك ابن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء. وربما يأخذ بالرأى، فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسم من أمر المسلمين قولاً، لا يوافقه عله أحد من المسلمين، ثم لا يستوحش لانفراده بذك وإمضائه الحكم عليه، وهو مقر بأنه رأى منه، لا يحتج بكتاب ولا سنة. فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسنن المختلفة فترفع إليه في كتاب، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس، ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله، ويعزم عليه عزماً، وينهى عن القضاء بخلافة، وكتب بذلك كتاباً جامعاً لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلفة

---

١ يتبيغ: يهيج

٢ هريق: لغة فى أريق

الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً، ورجونا أن يكون اجتماع السنن قرينة لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه، ثم يكون ذلك من غمام آخر، آخر الدهر، إن شاء الله".

ومضى ابن المقفع يذكر أن اختلاف الأحكام إذا كان يرجع إلى سنن ماثورة غير مجمع عليها فينبغى الأخذ بما هو أشبه بالعدل، وإذا كان يرجع إلى استخدام الرأى والقياس، فإن القياس قد يخطئ، وليس المدار على القياس في حد ذاته، وإنما المدار على ما يقود إلهي فإن قاد إلى حسن أخذ به وإن قاد إلى قبيح ترك، إذ المراد ليس عين القياس، وإنما المراد إحقاق الحق لأهله. ولعل هذه الدعوة إلى إصلاح التشريع وجمع السنن والأحكام والأقضية ووضع قانون عام للقضاء هي التي دفعت المنصور ليطلب إلى مالك أن يؤلف في الفقه كتابه "الموطأ" وقد قال له: إنى أريد أن ترسل لى به لأكتب منه نسخاً يرجع إليها الناس في الأمصار، غير أن مالكاً لم يرتض الفكرة، لأن المسلمين في كل بلد رووا من السنة النبوية ما دانوا به، غير أنه ألف "الموطأ" وذاعت أحكامه الفقهية في الحجاز، وفى كثير من المصار وخاصة في مصر والمغرب والأندلس. ويدعو ابن المقفع بعد ذلك المنصور إلى العطف على أهل الشام مع ما يكنونه للدولة من عداوة، لسلبها السلطان منهم، وأن يصطنع خيارهم، فيتبعهم في محبة الدولة غيرهم، وتأخذ دائرة هذه المحبة في الاتساع. ويطلب إليه ان يرد عليهم فيئهم، حتى يذعنوا للدولة عن رضا، وحتى تهدأ نفوسهم فلا تكون منهم وثبات ولا ثورات. ويتحول ابن المقفع إلى بطانة الخليفة ورجال دولته ويطلب إليه أن يعيد النظر فيهم، فإن بينهم كثيرين ليسوا بذوى بلاء ولا فيهم غناء، بل بينهم من اشتهروا بالفجور والأعمال القبيحة، مع أن منهم من يصرف أمور الدولة ومن يعمل في دواوينها. وحرى بالخليفة أن يجعل أساس اختياره لحاشيته الأمانة، والعدالة وجودة الراى وأن لا يقرب منه إلا من صنع مكرمة عظيمة أو أبلى بلاء حسناً، أو عرف بأصالة رأيه وحصافته أو كان عالماً ينتفع الناس بعلمه، وعليه أن يجعل لكل منهم اختصاصاً في عمله لا يتعداه. ونصحه بأن يستخدم أهل بيته ويسند إليهم جسام الأمور والأعمال. ثم وقف عند الخراج أو بعبارة أخرى الضرائب المفروضة على الراضى والضياع في الدولة، ولفت المنصور إلى ما فيها من فوضى، إذ ليست هناك قواعد مقررة، وكل عامل يفرض الضريبة حسب مشيئته، ودعاه إلى وضع وظائف ثابتة على كل أرض وكل ضيعة، وبذلك يقف ظلم العمال ويأمن الزراع على عمارة ضياعهم وأراضيهم، كما دعاه إلى تخير عمال الخراج وتفقدهم واستبدال من تظهر عليه خيانة. وتحدث عن أهل الجزيرة العربية من الحجاز واليمن ومن وراءهم من البدو، وطلب إلى المنصور أن تسخو نفسه عن أموالهم من الصدقات وغيرها مما يجبى منهم، وكأنه نظر في ذلك إلى فقر بلادهم وجد بها وأنهم كانوا مادة الإسلام والفتوح.

ودعاه إليأن يولى عليهم الخيار من أهل بيته. وطلب إليه اخيراً أن يعين في الأمصار طائفة من الفقهاء والمنحدثين النابهين تكون مهنمتهم تأديب العامة وتبصيرها الخطأ ومنعها من البدع والفتن، وبذلك رشح ابن المقفع لقيام وظيفة المحتسب في الدولة العباسية، وكان يعهد إلهي بمراقبة الأسواق والحكم فيما ينشأ فيها من منازعات وجنايات وما يكون من خطأ في البيع والشراء أو نقص في المكاييل والموازين.

وقد يكون ابن المقفع تأثر في هذه الرسالة ببعض أنظمة الحكم الساسانية وبما سمعه عن قانون جوستنيان الرومانى ولكن من المحقق أنه صدر فيها عن فطنة وقفوة ملاحظة لأحوال الدولة الإسلامية في عصره وما حذقه من شئون السياسة التي استوحاها مما قرأه عند الأوائل. ودائماً لا نستطيع أن نخليه في كتاباته من التأثر بالثقافات الأجنبية إذ كان أكبر من اطلعوا عليها في عصره، وكان ذهنه من الخصب، بحيث يستنبط كثيراً من الاراء والفكار وخاصة ما يتصل بالإصلاح الاجتماعى والسياسى. ولعل هذا الإصلاح الذي كان ينشده للدولة العباسية هو الذي دفعه إلى ترجمة القصص الخيالى الهندي، أو بعبارة أخرى ترجمة كليلة ودمنة، ويقال إنها نقلت في عهد كسرى أنوشروان من الهندية إلى الفهلوية، وقد عثر الباحثون على بعض أصولها الهندية، من مثل "بنج تانترا" ومثل "هتوبادشا" ووجدوا منها بعض أصول في "المهابهارتا" مما يؤكد أنه هندية الأصول، بل يثبته إثباتاً قاطعاً[1]. ورجح كثير من الباحثين أن ابن المقفع زاد في الكتاب بعض الفصول والقصص، ولكن ربما زاد ذلك بعض من جاء بعده، إذ ترجم الكتاب مراراً، شعراً ونثراً، وأكب رالظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذي وضعه بين يدى القصص وسماه "عرض الكتاب" وذكر البيرنى قديماً أنه زاد أيضاً باب بروزيه "قاصداً تشكيك ضعفى العقائد في الدين وكسرهم للدعوة إلى مذهب المانية، وإذا كان مهتماً فيما زاد لم يخل من مثله فيما نقل[2]". غير أن أبحاث المحدثين أثبتتع أن هذا الفصل كان موجوداً في الصل الفارسي، مما يجعلنا نظن أن أصحاب الدعوة المانوية من الفرس استغلوا الكتاب قبل نقله إلى العبية في الدعوة لمذهبهم المانوى.

ومثل ابن المقفع في ترجمة هذا الكتاب مثله في ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والخلفية يصب في دقة المعنى الذي يترجمه في القوالب العربية التي تلائمه وتلائم الذوق

---

١ مقدمة كليلة ودمنة (طبع دار المعارف) ص ٣٥ وما بعدهخا

٢ تحقيق ما للهند من مقولة ص ٨٦.

العربي، بحيث خيل إلى كثير من القدماء أن كل تلك الترجمات من تأليفه وتصنيفه، إذ لم يجدوا أى فارق في الصياغة بين ما يترجمه وينشئه. وحقاً حمل عليه الجاحظ في ترجمته لمنطق أرسطو، إذ لاحظ في ألفاظه قصوراً أحياناً عن أداء المعاني المنطقية[1]، وهو قصور منشؤه صعوبة أداء هذه المعاني لأول مرة في العبية، ومهما يكن فله فضل الرائد. وهو إن فاته التوفيق في نقل المنطق الأرسططاليسى فإنه لم يفته في بقية ترجماته، وأمامنا كليلة ودمنة التي لا تعد آية من آيات بلاغته فحسب، بل تعد آية من آيات البلاغة العباسية على الإطلاق. وفى رأينا أن غض الجاحظ من ترجمته لمنطق أرسطو هو الذي دفع طه حسين في كتابه "من حديث الشعر والنثر" إلى التشكك في مقدرته على أداء المعاني الدقيقة العميقة حتى ليقول عنه: "له عبارات من أجود ما تقرأ في العربية وبنوع خاص في الأدب الكبير وفى كليلة ودمنة، ولكنه عند ما يتناول المعاني الضيقة التي تحتاج إلى الدقة في التعبير يضعف، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة"[2] ويبلغ من إزرائه عليه أن يقول إنه "كان مستشرقاً كغيره من المستشرقين يحسن اللغة العربية فهماً، وربما أعياه الأداء فيها" ويستشهد لذكل بامثلة من رسالة الصحابة والأدب الكبير، كل ما يلاحظ عليها اضطراب في بعض الضمائر، وكأنه نسى أن الرسالتين تداولتهما أيدى النساخ بعد ابن المقفع وأنه ربما دخلها هذا الارتباك من أيديهم. والحق أنه أسرف في إزرائه عليه وفى عده مستشرقاً كالمستشرقين الغربيين في عصرنا، فهؤلاء لا ينتشأون في بيئات عربية كبيئة البصرة التي نشأ فيها ابن المقفع، وهم لا ينقلون إلى العربةي آثار قومهم الأدبية على نحو ما كان ينقل ابن المقفع عن الفارسية، ثم هم لم يوظفوا في الدواوين العربية ولم يعملوا فيها كتاباً يكتبون الرسائل السياسية الرسمية، على نحو ما وظف ابن المقفع. ولم يكن كاتباً فحسب بل كان أيضاً يحسن صوغ الشعر العربي، وقد أجمع معاصروه على أنه كان آية في البلاغة، وجعلوه على رأس البلغاء العشرة الذين سموهم في هذا العصر[3]، وبلغ من إعجابهم به أنهم كانوا يكثرون من أسئلته عن البلاغة، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع، ونفس الجاحظ يقول في بعض رسائله إن الكتاب الناشئين كانوا يتدارسون آثاره ليحذقوا البيان وليلحقوا عقولهم وألسنتهم بخير لقاح[4].

---

١ الحيوان ١/ ٧٦

٢ من حديث الشعر والنثر ص ٤٨ وما بعدها

٣ الفهرست ص ١٨٢

٤ ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٢

ولم يكن ابن المقفع بليغاص فحسب، بل كان أكبر بلغاء عصره، إذ استطاع أن يملأ أوانى العربية بمادة أجنبية غزيرة، دون أن يحدث فيها انحرافاً من شأنه أن يجر ضرباً من الازدواج اللغوى، إذ من المعروف أن لكل لغة صياغتها وأنماطها الخاصة في التعبير، ولها أيضاً صورها وأخيلتها التي قد تستعصى على الأداء في لغة أخرى. وشئ من ذلك لا يصادفنا عند ابن المقفع، فقد استطاع أن يحتفظ للعربية في ترجماته بمقوماتها الأصيلة، كما استطاع الملاءمة بين الأخيلة والصور الفارسية وذوق اللغة العربية، بحيث لا نحس عنده نبواً ولا انحرافاً، مما يشهد له بقدرته البيانية وأنه استطاع أن يحوز لنفسه السليقة العربية التامة بكل شاراتها وسماتها اللغوية.

والحق أنه كان آية في البلاغة وجزالة القول ورصانته مع سهولته، وقد نصح مرة لبعض الأدباء، فقال له: "إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العى الأكبر". ولعل خير ما يصف بلاغته إجابته لسائل سأله عن البلاغة فقال: "هى التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها".

والمسألة لا تقف عند وصفه بالبلاغة، فهى أوسع من ذلك وأبعد مدى، إذ كان من أوائل من ثبتوا الأسلوب الكتابى العباسي المولد، وهو اسلوب يقوم على الوضوح وأن تشف الألفاظ عن معانيها وأن تخلو من كل غريب وحشى ومبتذل عامى. ولم يقصر ابن المقفع هذا الأسلوب على ما ينشئه من رسائل ديوانية أو إخوانية، بل عممه في ترجماته، وبذلك وطده أقوى توطيد ومكن له أوسع تمكين، إذ جعله أسلوب النثر العام في العصر مهما اختلفت فنونه. وكانت غزارة معانيه سبباً في ان يتميز هذا الأسلوب عنده بالإيجاز والاقتصاد الشديد، فالألفاظ بقدر المعاني لا تنقص ولا تزيد، والمعانى تؤدى أداء فصيحاً رصيناً، دون قصد إلى الجما لالتعبيرى من سجع أو ترادف صوتى. ويظهر أنه على الرغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن وصياغاته فاستعار من ألفاظه وأساليبه كثيراً في جوانب كتاباته حتى في القصص الحيواني قصص كليلة ودمنة، وطبيعى أن تبلغ هذه الاستعارة عنده الغاية في تحميداته التي كان يفتتح بها الرسائل السياسية الرسمية والتى كان يعظم فيها الدين الحنيف على نحو ما نرى في هذا التحميد[1]:

"الحمد لله ذى العظمة القاهرة، والآلاء الظاهرة، الذي لا يعجزه شئ ولا يمتنع منه، ولا يدفع قضاؤه ولا أمره: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون). والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه،

---

١ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٣

ودبر الأمور بحكمه، وأنفذ فيما اختار واصطفى منها عزمه بقدرة منه عليها وملكته[1] منه لها (لا معقب لحكمه) ولا شريك له في شئ من الأمور (يخلق ما يشاء ويختار) وما كان للناس الخبرة في شئ من أمورهم (سبحان الله وتعالى عما يشركون). والحمد لله الذي جعل صفوة ما اختار من الأمور دينه الذي ارتضى لنفسه ولمن أراد كرامته من عباده، فقام به ملائكته المقربون، يعظمون جلاله ويقدسون أسماءه ويذكرون آلاءه لا يستحسرون[2] عن عبادته ولا يستكبرون (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) وقام به من اختار من أنبيائه وخلفائه وأوليائه في أرضه يطيعون أمره ويذبون عن محارمه، ويصدقون بوعده، ويوفون بعهده وياخذون بحقه ويجاهدون عدوه. وكان لهم عند ما وعدهم من تصديقه قولهم وإفلاجه[3] حجتهم وإعزازه دينهم وإظهاره حقهم وتمكينه لهم، وكان لعدوه وعدوهم عندما أوعدهم من خزيه وإحلالخ بأسه، وانتقامه منهم وغضبه عليهم. مضى على ذلك أمره ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى، وهو ممضيه ومنفذه على ذلكم فيما بقى (ليتم نوره ولو كره الكافرون) و (لأيحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون). والحمد لله الذي لا يقضى في الأمور ولا يدبرها غيره، ابتدأها بعلمه وأمضاها بقدرته، وهو وليها ومنتهاها، وولى الخيرة فيها والإمضاء لما أحب أن يمضى منها (يخلق ما يشاء ةيختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون). والحمد لله الفتاح العليم العزيز الحكيم، ذى المن والطول[4] والقدرة والحول[5]، الذي لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته، ولا دافع لما انزل بأعدائه من نقمته، ولا راد لأمره في ذلك وقضائه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، والحمد لله المثيب بحمده ومنه ابتداؤه، والمنعم بشكره وعليه جزاؤه، والمثنى بالإيمان وهو عطاؤه".

والآيات المقتبسة من الذكر الحكيم كثيرة في هذا التحميد، وقد وضعناها بين أقواس لتتضح مواضعها، ووراءها ألفاظ كثيرة مستمدة من القرآن الكريم. وبدا عنده هنا شئ من السجع الذي يأتى عفواً سمحاً، وكأنما ابتغى هنا التنميق بأكثر مما كان يبتغيه في ترجماته. ونحن نسوق طائفة من رسائله

---

١ ملكة: ملك

٢ يسحسر بالشئ: يهيأ به

٣ إفلاجه: نصرة

٤ الطول: الإنعام

٥ الحول: القوة

الإخوانية ليتضح لنا مكا كان يبذل فيها من جهد فنى، وأول ما نذكر منها تهنئة بمولودة لأحد أصدقائه على هذا النمط[1]:

"بارك الله لكمن في الابنة المستفادة، وجعلها زيناً، وأجرى لكم بها خيراً، فلا تكرهها، فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات، ومنهن (الباقيات الصالحات) ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم".

واقتبس هنا من القرآن كلمة (الباقيات الصالحات) وعنى بالإيجاز والاقتصاد الشديد، ومما كتب به في التعزية عن ولد[2]:

"إنما يستوجب على الله وعده من صبر لله بحقه، فلا تجمعن إلى ما فجعت به من ولدك الفجيعة بالأجر عليه والعوض منه، فإنها أعظم المصيبتين عليك، وأنكى المرزئتين[3] لك، أخلف الله عليك بخير، وذخر لك جزيل الثواب".

والدقة المنطقية واضحة في هذه الرسالة مع ما يجرى فيها من طرافة التفكير، فقد جعل الجزع على الولد فيجعة لا تقل عن فجيعة فقده، بل جعلها أعظم وأنكى، إذ تحرم صاحبها الثواب. وتلطف فدعا لصاحبه أن يعوضه الله من ولده ويخلف عليه بخير منه، ومن رسائله الإخوانية البديعة ما كتب به إلى بعض إخوانه يستقضيه حاجة[4]:

"أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه واستوجب بذلك الشكر عليهم فلنفسه عمل لا لهم، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لابد لزراعه من حصاده أو لعقبه من بعده. وكتبت إليه، ولحالنا التي نحن بها فيما نذكر لك حاجة، أول ما فيها معروف، تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الأيادى قبلنا".

ودقة التفكير واضحة في الرسالة، فقد جعل قضاء أخه لأخيه حاجة ليس مما يؤديه إليه، وإنما يؤديه إلى نفسه، لقيامه بحقوق أخيه ونهوضه بواجبه نحوه. ويتحدث عن بذل المعرفو، ويتبادر إليه جحود بعض الناس، فيقول إن المعروف غرس لابد من حصاده حتى عند من يجحدون ولا يشكرون. مرت

---

١ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٧

٢ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٨

٣ المرزءتين: المصيبتين

٤ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٦٠

بنا في الفصل السالق رسائل إخوانية تحول بها بعض الكتاب إلى ما يشبه رسائل أدبية تصف الخوة والصداقة من حيث هما مفصلة صفاتها وشرائطها، ولابن المقفع قطعة أدبية بديعة في وصف أحد إخوانه، وفى راينا أنه لم يصف فيها أخاً بعينه، إنما وصف المثل الأعلى للأخ الكامل، أو بعبارة أدق للرجل الفاضل، وهى تمضى على هذه الشاكلة[1]:

"إنى مخبرك عن صاحب لى كان أعظم الناس في عينية، وكان رأس ما عظمه عندى صغر الدنيا في عينه. كان خارجاً من سلكطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد، ولا يكنز إذا وجد. وكان خراجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً، وكان لا يأشر[2] عند نعمة ولا يستكين عند مصيبة. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يمارى[3] فما علم. وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة. وكان أكثردهره صامتاً، فإذا نطق بذ القائلين. وكان يرى ضعيفاً مشتعفاً، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً. وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء ولا يدلى بحجة، حتى يرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولا. وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله، حتى يعلم ما اعتذاره. وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء، ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة. وكان لا يتبرم، ولا يتسخط، ولا يتشكى، ولا يتشهى. وكان لا ينقم على الولى ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوةانه بشئ من اهتمامه وحيلته وقوتعه. فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها، ولن تطيق ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع".

وواضح أن هذا الوصف للرجل الكامل وخصاله يعد درة ثمينة من در رالبلاغة العباسية، ومن الخطأ البين ان يقال عن صاحبه وصاحب النصوص التي أسلفناها إنه كان كأحد المستشرقين يتعثر في أساليبه وتضطرب لغته، ويعيبه أحياناً الأداء السليم ويستعصى عليه استعصاء، فقد كانت اللغة العربية تستقيم له، وكان أعجوبة زمانه في البيان والبلاغة مع الجزالة والنصاعة حيناً، وحيناً آخر مع العذوبة والرشاقة.

---

١ انظر هذا الوصف فى آخر الأدب الكبير وفى زهر الآداب ١/ ١٧٩ وفى جمهرة رسائل العرب ٣/ ٥٦

٢ يأشر: يبطر

٣ يمارى: يجادل

٢

سهل بن[١] هرون

هو سهل بن هرون بن راهبونى كما جاء في البابن والتبيين، وفى كتاب البخلاء "راهبون" وفى الفهرست "رامنوى" وفى حياة الحيوان للدميرى "راهويه" وهو فارسى الأصل، وعلى نحو ما اختلف الرواة في اسم جده اختلفوا في مسقط رأسه، فقيل إنه من أهل دستميسان، وهى كورة بين البصرة وواسط والأهواز، وقيل إنه من أهل ميسان قرية بتلك الكورة، وقيل إنه من أهل نيسابور. ولا يعرف تاريخ مولده، وأغلب الظن أنه ولد حوالى منتصف القرن الثانى الهجرى، وقد ترك مسقط رأسه مبكراً إلى البصرة، وأقبل على التزود من ينابيع الثقافة التي كانت منبثة بها، وخاصة علم الكلام وما نقل عن الأجانب من مختلف الترجمات فارسية ويونانية وهندية وأخذ هو نفسه يشارك في ترجمة بعض الرسائل عن لغته الأصلية. وتجذبه بغداد إليها أملاً أن ينال بها شيئاً من المجد والشهرة، وسرعان ما يقربه يحيى البرمكي وزير الرشيد منه، فيلحقه بالدواوين، حتى غذا أسس الرشيد دار الحكمة عين بها للإشراف على بعض الكتب وبعض ما كان يترجم فيها من الآداب الأجنبية، إذ كان أحد النقلة النابهين من لسانه الفارسي إلى العربية. وفى أثناء صلته بالبرامكة وبعد نكبتهم سنة ١٨٧ للهجرة انعقدت صداقة وثيقة بينه وبين الفضل بن سهل مدبر شئون المأمون ومستشاره وكاتبه، فقدمه إلى المأمون، فأعجب ببلاغته وصحة منطقه وذكائه، حتى إذا تحولت الخلافة إليه وأخذ يعنى بشئون دار الحكمة عنايته الواسعة المعروفة، إذ حولها إلى ما يشبه أكاديمية ضخمة، جعله قيماً

---

١ انظر فى ترجمة سهل وأخباره البابن والتبيين ١/ ٥٢، ٨٩، ١٩٦، ٢٣٨، ٣٤٦، ٣/ ٢٩ والحيوان ٢/ ٣٧٤، ٣/ ٦٦ و ٤٦٦، ٥/ ٦٠٣، ٧/ ٢٠٢ والفهرست ص ١٧٤ وزهر الآداب ٢/ ٢٥٧ – ٢٥٩ والتنبيه والإشراف للمسعودى (طبع ليدن) ص ٧٦ وعيون الأخبار ٣/ ٢٥، ١٣٨، ٤/ ١١٢ وشرح قيدة ابن عبدون لابز بدرون (طبعة دوزى) ص ٢٤٣ والعقد الفريد ٥/ ٥٨ وفى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وفوات الوقيات ١/ ١٨١ وسرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن نباته (نشر دار الفكر العربى) ص ٢٤٢ وحياة الحيوان للدميرى ١/ ٥١٣ وحولية الجامعة التونسية العدد الأول سنة ١٩٦٤

على خزائن كتب الفلسفة التي جلبت من قبرص، ليشرف على نقلها إلى العربية. وكان يلزم المأمون في مجالسه وندواته التي كان يعقدها لكبار العلماء والمتكلمين، ومازال خازناً بدار الحكمة حتى توفى سنة ٢١٥ للهجرة.

واشتهر سهل في زمانه بالحكمة والبلاغة حتى سماه معاصروه بزرجمهر الإسلام، إشارة إلى أنه يحل في العربية محل بزرجمهر في الفارسية وما أثر عنه من حكم وأمثال كثيرة، ووصفه الجاحظ فقال: "كان سهل سهلاً في نفسه عتيق الوجه[1]، حسن الشارة، بعيداً من القدامة[2]، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة وبرقة الذهن قبل المنخاطبة وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبل قبل التكشف[3] " ووصفه الحسن بن سهل وزير المأمون فقال: "وازن العلم، واسع الحلم، إن حوادث لم يكذب، وإن وموزح لم يغضب، كالغيث أين وقع، وكالشمس حيث أولت، أحيت، وكالأرض ما حملتها حملت، وكالماء طهور لملتمسه وناقع لغلة من حر[4] إليه، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالتنسم، وكالنار التي يعيش بها المقرور، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور". ويقول ابن النديم إنه كان "شعوبى المذهب، شديد العصبية على العرب، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل في البخل، وكأنه أراد بتلك الرسائل أن ينقض فضيلة الكرم العربية. وكان البخل سجية وطبعاً ركب فيه، ورويت عنه في ذكل نوادر كثيرة، منها أن شخصاً لقبه، فقال له: هب لى ما لا ضرر به عليك، فقال: وما هو يأ أخى، قال: درهم، فقال سهل: لقد هونت الدرهم، وهو طائع الله في أرضه لا يعصى، وهو عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هونته، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم. فانصرف الرجل، ولوا انصرافهع لم يسكت سهل. ومن حكاياته العجيبة في البخل ما حكاه دعبل، قال: "كنا عنده يوماً، فأطلنا القعود ولم نبرح، حتى كاد يموت جوعاً، فلما اضطررناه قال: يا غلام ويلك غدنا، فأتاه بصحفة فيها مرق، تحته ديك هرم لا تحز فيه

---

١ عتيق الوجه: جميل

٢ الفدامة: العى

٣ البابن والتبيين ١/ ٨٩

٤ حر: عطش، والصفة حران

السكين ولا تؤثر فيه الأضراس، فاطلع في الصحفة وقلب بصره فثها، ثم اخذ قطعة خبز يابس، فقلب جميع ما في القصعة، حتى فقد الأس من الديك. فبقى مطرقاً ساعة، ثم رفع رأسه إلى الغلام، فقال: أين الرأس ؟ فقال: رميت به: قال سهل: ولم رميت به؟ قال: لم أظنك تأكله، قال: ولأى شئ ظننت أنى لا أكله؟ فوالله إنى لأمقت من يرمى برجليه، فكيف من يرمى برأسه، ثم قال له: لو ام أكره ما صنعته إلا للطيرة (التشاؤم) والفأل لكرهته، الرأس رئيس وفيه الحواس الخمس، ومنه يصبح الديك، ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقة الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل، يقال شراب كعين الديك في الصفاء، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، فهلا إذ ظننت أنى لا آكلهع ظننت أن العيال يأكلونه؟ وإن كان بلغ من نبلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله، أما علمت أن خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق؟ انظر أين هو؟ قال: واغلهل ما أدرى أين رميت به، قال سهل: لكنى أدرى أنك رميت به في بطنك، والله حسيبك". ولعل في هذه النادرة وسابقتها ما يدل على ظرفه، وهو ظرف كان يشوبه بالفكاهة الحلوة أحياناً، وأحياناً بالسخرية المرة، من ذلك أنهم قصوا عنه أنه حدث بعض الأمراء، فقال له كذبت، فأجابه على البديهة: إن وجه الكذاب لا يقابلك، يعنى أن الأمير هو الكذاب، لأن وجه الإنسان لا يقابله. وطلب إليه أبو الهذيل العلاف المتكلم المشهور أن يكمتب له رسالة إلى الحسن بن سسهل يوصيه فيها به، فلبى طلبه، ولما تقدم بها إلى الحسن وفضها وقرأ ما فيها أغرب في الضحك، إذ وجد سهلاص ينهاه عن أن يمد لأبى الهذيل العون بأبيات تتحيفه وتقيض يد قارئها عن مساعدته، استهلها بقوله:

إن الضميرَ- إذ سألتُك حاجةً ... لأَبى الهُذَيْل- خِلافُ ما أُبْدى

فامنَحْه روحَ اليأس ثم امْدُدْ له ... حَبْلَ الرَّجاء بِمُخْلِفِ الوَعْدِ

حتى إذا طالتْ شقاوةُ جدِّهِ ... وعَنائه فاجْبَهْهُ بالرَّدِّ

وقال الحسن: هذه صفته لا صفتنا، وأمر لأبى الهذيل بمال، فعاد إليه، وعاتبه، فقال سهل: ترى أين عزب عنك الفهم، أما سمعت قولى: "إن الضمير خلاف ما أبدى، فلو لم يكن

ضميرى الخير ما قلت هذا. وهى مغالطة واضحة، غير أنها تدل على قدرته العقلية في الإيتيان بالحجة الصحيحة تارة، والحجة المدخولة تارة ثانية.

وكان سهل يحسن القول نثراً وشعراً، وفيه يقول الجاحظ: "ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المدونة والأخبار المولدة سهل بن هرون بن راهبونى الكاتب صاحب كتاب ثغله وعفراء في معارضة كتاب كليلة ودمنة، وكتاب الإخوان وكتاب المسائل وكتاب المخزومى والهذلية وغير ذلك ن الكتب، وذكر ابن النديم من كتبه أيضاً "كتاب النمر والثعلب، وكتاب الوامق والعذراء، وكتاب ندود ودود ولدود وكتاب الضربين وكتاب الغزالين وكتاب أدب أسل بن أسل وكتاب إلى عيسى ابن أبان في القضاء وكتاب تدبير الملك والسياسة". وذكر ابن نباتة كتاباً له في سيرة المأمون.

ويظهر أنه عنى في كثير من كتبه بالقصص على ألسنة الحيوان، مشاكلة لكتاب كليلة ودمنة، وكان من أهم ما وضعه في ذلك كتاباه: "ثعلة وعفراء" و "النمر والثعلب" وقد أشد المسعودى بأولهما وقال إنه يزيد على كليلة ودمنة بحسن نظمه. وقد اتخذ من الحيوان وسيلة للعظة والتربةي الاجتماعية والسياسية بما يفصل من الكلام وضرب الحكم والأمثال بالضبط كما صنع واضع كليلة ودمنة، ولم يبق لنا من كتاب ثعلة وعفراء سوى هذه النصيحة:

"اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً ما قبل الذي تجودون به من تفضلكم، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظاهر على وهن العقيدة وتقصير الروية، ومضر بالتدبير ومخل بالاختيار، وليس في نفعه تحمد به عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصة".

ويقول الحصرى بعد ذكره لهذه النصيحة: إن هذا الكتاب مملوء حكماً وعلماً. وعثر السيد عبد القادر المهيرى حديثاً على كتاب النمر والثعب، ونشر مقتطفات منه مع مقدمة في العدد الأول من حولية الجامعة التونسية، والكتاب، أو بعبارة أدق القصة تدور على ثلاث شخصيات هي الثعلب الحكيم والذئب الجحود والنمر الطاغى، وتتسلسل القصة تسلسلاً دقيقاً، فالثعلب كان يعيش مع زوجه في واد غبر عليه زمان عليه وهو حسن الحال رخى البال، ومر به ثعلب آخر، فأنكر موضع جحره من الوادى ونصحه أن يتحول عنه، مخافة أن يهجم عليه السيل،

واستشار زوجه، فأبت عليه التحول، ولم يلبث أن جاء طوفان من السيل حمله وحده إلى جزيرة لم يسمع بها حسيساً، ولم ير أنيساً، فبات ليلته طاوياً حتى أصبح، وبينما يتلفت من حوله إذا ذئب يمر به، فتعارفا، وسرعان ما عرف منه أن الجزيرة تمتلئ بالظباء وبقر الوحش غير أنه لا يستطيع أن يصيدها ولا أن يقربها ولا أن يتجاوز موضعه، لخضوع الجزيرة وكل ما بها من وحش لملك طاغ باغ هو النمر الذي تجبر وتكبر. وقال له: إننى لا أكلمك الآن إلا فزعاً مرتعباً خشية ان يرانا، فلننصرف، ولنلتق غداً في مكان خفى، فالتقيا، وأشار عليه الثعلب أن يقدم على النمر فيتلطف له ويطلب منه ولاية في الجزيرة يقوم على حكمها ويشاطره خيراتها، ويتعخذ منه وزيراً يعينه على إدارتها، ويبدى الذئب خوفه من لقاء الملك الباطش، وما يزال يشجعه حتى يلقاه. ويعجبه حديثه وما عرض عليه، فيعينه والياً على مناهل الظباء، ونحن نسوق هذه الطقعة من القصة لندل على أسلوب سهل وطريقته في هذا القصص الحيواني الخيالى ن وهى تحكى ما حدث بعد لقاء الثعلب للذئب فجأة واتفاقهما على اللقاء، وما كان بينهما من حوار في هذا اللقاء، وما أثمر الحوار للذئب من الولاية وللثعلب من الوزارة:

"انصرف الثعلب حزيناً مغتماً لما حزره من عداوة النمور وعدم القوت، ثم فكر فقال: إنما يعرف فضل عقل المرء في شدائد الأمور ونوازل الخطوب، فأما عند الرخاء فما أقرب الجاهل من العالم والأحمق من العاقل، وذلك أن مساعدة الدنيا للجاهل ساترة لنقصه عن زيادة العاقل وحاجبة عن التمييز بينه وبين اللبيب وليس لمثلى قوة على صيد الظباء وبقر الوحش، وإنما يصيد كل امرئ (على) قدره، وليس ههنا إلا طلب الحيلة. فلما أصبح الصبح قصد المكان الذي وعد الذئب فيه والتقيا هنالك عن رقبة (تحفظ) من النمر، فقال له الثعلب يا أبا الفراءي كنت مهموماً بنفسى، فزادنى اهتماماً ما أبثتنى من حديثك وألقيت إلى من سوء حالك، وههنا تدبير إن أعنتنى عليه بهمة صادقة، فلعله أن يعود إلى صلاح، فقال الذئب: وما هو ؟ قال الثعلب: ائت النمر، فسله أن يوليك ولاية ترد عليك نفعاً وترد لك ذكراً وتكسبك حمداً، قال الذئب: فأين ما أخبرتك عن بخله وشراسة خلقه، وإنه لكما قال القائل: سواء هو والعدم، قال الثعلب: فأعلمه أنك لا تفيد شيئاً إلا بعثت إليه بطشره فإن لك فيما يبقى منتفعاً وصلاحاً، فإن أجابك فلن تعدم منى معونة حسنة وقياماً بالذى يجب، وكن كما قال الشاعر:

وليس الرزقُ عن طلب حَثيثٍ ... ولكن أَلْق دلْوك في الدِّلاء

تجئْك بملئها طوراً وطوراً ... تجئُ بِحمْأَةٍ وقليل ماءِ[1]

قال الذئب: يا أبا الصباح إنه كان يقال: الاتقوا مقارفه[2] الحريص الغادر، فإنه إن رآك في القوة رأى منك أخبث حالاتك، وإن رآك في الفضول[3] لم يدعك وفضولك، قال الثعلب: يا أبا الفراء: إنه ليس الرأى.. من عاش غير خامل الذكر والمنزلة إذا أفضل على نفسه وأصحابه فهو وإن قل عمره طويل العمر، ومن كان عيشه في ضيق وقل خيره على نفسه وعلى الناس فهو وإن طال عمره قصير العمر. قال الذئب: إنه كان يقا ل: أمور ثلاثة لا يجترئ عليها إلا أهوج ولا يسلم منها إلا قليل: صحبة اسلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السنم على التجربة. قال الثعلب: قد يبلغ الخصم بالقضم[4]، ويركب الصعب من لا ذلول له. وليس يواظب على باب السلطان أحد، فيلقى عن نفسه الأنفة ويتحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس إلا خلص إلى حاجته من السلطان. قال الذئب: إنه كان يقال: لا تغتبط بسلطان من غير عدل، ولا بغنى من غير فضل ولا ببلاغة من غير صضدق، ولا بجود من غير إصابة، ولا يحسن عمل من غير خشية. قال الثعلب: إنه ينبغي للعاقل إن يدارى الزمان مداراة الرجل السابح في الماء الجارى، وقال المتمثل: أرضى من المركب بالتعلق. قال الذئب: السبب الذي يدرك به العاجز حاجته هو السبب الذي يحول بين الحازم وطلبته. قال الثعلب: المال زيادة في القوت والرأى، وليس الإخوان والأهل والأعوان إلا مع المال، ولا يظه المروءة إلا المال، لأن من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العدم فقصر عنه. قال الذئب: إن للسلطان سكرات، فمنها الرضا عن بعض من يستوجب السخط، والسخط عمن يستوجب الرضا، ولذلك قيل: قد خاطر من لجج في البحر، وأشد منه مخاطرة من صاحب السلطان. قال الثعلب: من لم يركب الأهوال على صعوبتها لم ينل الرغائب، ومن ترك الأمر الذي لعله أن يبلغ فيه حاجته مخافة ما لعله يوقاه

---

١ الحمأة: الطين الأسود

٢ مقارفة: مخالطة

٣ الفضول: جمع فضل وهو النعمة

٤ مثل معناه أن الغابة البعيدة قد ترك بالرفق. وأصل الخضم الأكل بجميع الفم، والقضم: الأكل بأطراف الأسنان.

فليس ينال جسيماً، وقد كان يقال: أعمال ثلاثة لا أحد يستطيعها إلا بمعونة ارتفاع همة وعظمن خطر: صحبة الملوك وتجارة البحر ومناجزة العدو. فأعجب الذئب كلامه، وفأتى النمر، فشكر له، وأقام بين يديه، وكان لا يعرفه بمثل هذه الذلة. فافتتح الكلام، فقال: أيها الملك إنى لما أنا عليه من المناصحة والموالاة تأملت باب الملك فوجدته خالياً من صالحى الأعوان وثقات الخدم، ولما رايت الملك كثير الكلف عظيم المؤن رحب الفناء جزل العطاء، وليس له من عبيده من يعينه على مئونته ويكفيه المهم من عمله ندبت نفسى للذى رأيتنى أقوى عليه ن حسن السياسة وضبط الناحية التي أتولاها ورد المنفعة على الملك منها. فأعجب النمر كلامه وطمع فيما وعده، فقال له: صدقت وبررت، وأنا مستكفيك ومقلدك، فأنظر كيف يكون ضبط وكفايتك وغناؤك ووفاؤك بما شرطت على نفسك. اكتب له يا غلام عهده على منهل الظباء، واجمع له أعمال ما هنالك، فخرج الذئب إلى عمله، واستخلف الثعلب وأحله محل الوزير الكاتب".

ومضى الذئب إلى ولايته مستصحباً وزيره، حتى إذا دانت له رعيته واستتب أمره وتمكن سلطانه أمسك بما كان يرسله للنمر من الخيرات والطيبات، وراسله النمر وذكره بعهوده ووعوده، ولكنه ظل سادراً في غيه، فكتب إليه يحذره وينذره بالعقاب والنكال، وكان الذئب قد صمم على التمرد ونقض الطاعة، فرد على النمر بهذه الرسالة العنيفة:

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الهل على سيدنا محمد النبى الكريم، أما بعد فإن كتاب الملك- أمتع الله به- وصل إلى بما حذر فيه وأنذر، وقدم وأخر، وفهمته، وقد كان الملك- حفظه الله- أسند إلى أمنر هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدو به، وانقطاع من سبله، واختلاف من الكلمة بين أهله وتفرق من الأهواء فيه، فرأبت[1] صدع الآفة، وجمعت شمل الطاعة، وكشف دجية[2] الفتنة وأسغت الريق بعد الشجا[3]، وقمعت أولى العداوة والبغضاء،

---

١ رأيت: أصلحت

٢ الدجية: الظلمة

٣ الشجا: الغصة وما يعترض فى الحلق

وأقمت حقاً كان معلمه[1] متروكاً، ودمغت ضلالة كان طريقها مسلوكاً، ألتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآرب ورضا الملك والزلفة عنده، فعاد ما عملته هباء، ولم أجد منه شيئاً مشكوراص، وما يقعقع لمثلى بالشنان[2] وإنى لألوى بعيد المستمر[3] فإن يستتم الملك صنيعته ويرب[4] نعمته فأنا بين العصا ولحائها[5] وإلا فسيجدنى جذل حكاك[6] إذا نكأت[7] قرحة أدميتها، أحمر[8]، ضراباً بالسيف، والسلام".

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاض عليه فجمع وزراءه، وكانوا ثلاثة، فاستشارهم في أمره، فأشار الأول بالكتابة إليه في إيجاز لتبين دخيلة أمره وحقيقة موقفه إن سلماً فسلم وإن حراباً فحرب، وأشار الثانى بالصفح عن زلته، فإن الحرب سجال، وهى حتى على الظافر خسارة في الأموال والرجال، وأشار الثالث بمحاربته قبل استفحال أمره وحتى لا يظن غيره من الولاة أن بالنمر ضعفاً، فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه، وأخذ النمر بقول الوزير الأول، فكتب إلى الذئب رسالة، نسختها:

"بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ممد النبى الكريم، أما بعد فإنى رأيتك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فغإذا نظرت في كتابى هذا فاعتمد على ايهما شئت فإن كنت سلماً فأقبل وإلا فأذن بحرب، والسلام".

ولج الذئب في عصيانه، ونشبت بينه وبين النمر معارك حامية الوطيس، انتهت بمقتله والقبض على الثعلب وزيره ةومدير أموره، وكاد أن يقتل لولا ما لاحظ النمر من ذكائه ودقة

---

١ معلمه: مفرد معالمه

٢ الشنان: جمعه شن وهو الجلد اليابس وقعقع: ضرب. وكانوا إذا ضربوا عليه نفرت الإبل، ويضرب ذلك مثلاً لمن لا يرهبه وعيد ولا إنذاء ولا تخويف

٣ ألوى: عسر، يلتوى على خصمه، بعيد المستمر: قوى فى الخصومة

٤ يرب: ينمى ويزظيد

٥ لحاء العصا: قشرها. والكناية واضحة

٦ الجذل: أصل الشجرة. حكاك من الحك وهوالدلك، وجذل حكاك: مثل يضرب لمن يستشفى برأيه

٧ نكأ القرحة: قشرها قبل أن تبرأ

٨ كنى بالحمرة عن البأس الشديد

تفكيره، مما جعلهخ يعده أن يبقى على حياته إن هو أحسن الإجابة على ام يلقى عليه من أسئلة. وتتوالى الأسئلة في افنسان والعقل وحظ العقلاء منه وتفاضلهم فيه وفى مكانة العقل من العلم وأثره في سلوك الإنسان وشيمه الخلقية وما يصيبه من خير أو شر. وتلقانا في هذه الإجابات طرافة تفكير سهل ودقته وتعمقه، ومن خير ما يصور ذلك حديثه عن تفاضل العقول والعقلاء ونزولهم في درجات متفاوتة تفاوتاً بعيداً، ومع ذلك يطلق عليهم جميعاً اسم واحد، يقول مورداً السؤال والإجابة، ومنتهياً إلى أن العقل الكامل من صفات الله وحده.

"أخبرنى عن العقل أهو شئ إذا نال الإنسان أدناه فقد بلغ أقصاه أم الناس في نيله مستوون أم متفاضلون؟ قال: بل متفاضلون، قال: فكيف دعى ذو الحظ اليسير منه باسم ذى الحظ الكبير، فقيل لهما علاقان وهما في العقل متباينان؟ فهل يقع اللقب الواحد على ذوى الدرجات الشتى؟ قال: نعم، وليس ذلك بخطأ من القائل، لأن هذه الدرجات الشتى من جنس واحد، واللغة تضيق عن هذا وما أشبهه أن يدعى كل ذى درجة من درجات الجنس الواحد بلقب غير لقب الآخر، ولو كلفت اللغة ذلك لطال الكلام.. لتوزعه المعنى المستوجب للاسم ولكنها شملتها كلها باللقب الواحد ودعت المختلفين فيه باسم واحد. قال: فكيف يعرف الناقص من الزائد وقد جمعهما اسم واحد؟. قال: بالتمييز وكشف المعرفة، ومثل ذلك في اللغة ما يدعى به أهل صناعة من الاسم الواحد وهم في تلك الصناعة متباينون في التفاوت، إذ يقال: بناة وبحارون وتجار وخياطون، ولكل منهم على صاحبه فضل أو عليه له فضل. فالناس كلهم مستوون فيما يلحقهم من النقص في العقل، وهم فيما أتوا منه متفاضلون، أحدهم فيه أكثر حظاً منه. قال: كيف مدت هذه الغاية ومنعه ذوو العقل بلوغها؟ قال: لأن الغاية كمال، والكمال صفة لا تصح إلا للخالق، ولا يستوى الخالق والمخلوق في صفته، تعالى الله عن ذلك"

وواضح ما أودعه سهل هذه القصة الحيوانية من تصوير لحكم الملوك المتجبرينوالولاة المتمردين وحيل الوزراء الدهاة، مستخلصاً في ثنايا ذلك كثيراً من العظات وناثراً كثيراً من الحكم والأمثال. وهو يبتغى بذلك نفس الغاية التي ابتغاها واضع كليلة ودمنة من نصح الملوك والحكام عن طريق ما يجرى على ألسنة الحيوان من مقت الظلم والبغى وسوء السيرة ومحبة العدل والإنصاف. وهو يتعمق أكثر مما تعمق صانع كليلة ودمنة، إذ يعرض للعلم والجهل

والعقل وإرشاده الإنسان إلى الخير وصرفه عن طريق الشر. والقصة مشوقة لا بما فيها من حوار فحسب، بل بطرافة الحواروما يجرى فيه من حيل وأفكار دقيقة نادرة. وفى أسماء كتب سهل التي ذكرناها آنفاً ما يدل على أنه أجرى بعض قصصه على ألسنة الإنسان مباشرة على نحو ما يدل على ذلك اسم كتابه "المخزومى والهذلية" واسم كتابه الثانى: "الوامق والعذراء".

واحتفظ الجاحظ في أول كتابه البخلاء برسالة طويلة له يحتج فيها للبخل وينصره عليا الكرم، ومر بنا ما يقال من أنه كتبها شعوبية على العرب، إذ١ حاول فيها أن يهدم فضيلة الكرم العربية هدماً. ويذكر الرواة أنه قدمها إلى الحسن ابن سهعل يرجو مكافأته عليها، فكتب له على ظهرها: "وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك". ونراه في فاتحتها يتوجه بالحديث فيها إلى بني عمه، وظن القدماء أنه يريد بني عمه الحقيقيين من آل راهبون، وأغلب الظن أنه يقصد العرب. وقد مضى يذكر أنه إنما يقصد هدايتهم وأنه إن أهطأه سبيل إرشادهم فلن يخطئه سبيل حسن النية، ثم أخذ يورد دفاعه عن البخل ومحاسنه، مستعيناً بقدرته على الجدل وصنع الحجج المنطقية وبما حفظ من بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة والتابعين، وهم إنما كانوا يريدون الاقتصاد وعدم الشطط في الإسراف، أما البخل فلا يرضاه التابعون ولا الصحابة فضلاً عن الرسول الكريم الذي حض على البذل والإيثار والسخاء بكل ما في اليد، كما حض القرآن الكريم لاى على الصدقات فحسب، بل على الاتساع بالإطعام وتقديم الماعون، وصور المثل الأعلى في ذلك فقال جل شانه: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون). وكل ذلك كان يعرفه سهل معرفة دقيقة، غير أنه كان يريد الدفاع عن البخل، فاختار من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة التابعين ما قد يشهد له، وهو إنما يشهد على زهادتهم في اتلدنيا وصغر متاعها في أعينهم حتى بعد إقبالها عليهم، وفرق بين الزهد والبخل والحرص والشح، ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة، لنطلع من جهة على قدرته في الجدل والحجاج، ومن جهة ثانية على قدرته البيانية، يقول:

"وعبتمونى حين ختمت على[1] عظيم وفيه شئ ثمين من فاكهة نفيسة ومن رطبة[2] غريبة على عبد نهيم[3] وصبى جشع وأمه لكعاء[4] وزوجة خرقاء[5]. وليس من أصل الأدب ولا في ترتيب الحكم ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة أن يستوى في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم في كل فن واللباب من كل شكل التابع والمتبوع والسيد والمسود كما لا تستوع مواضعهم في المجالس ومواقع أسمائهم في العنوانات وما يستقبلون به من التحيات.. وعبتمونى بخصف[6] النعال وبتصدير[7] القميص، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأوطأ[8] وأقوى وأنفى للكبر وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الحزم، وأن الاجتماع مع الحفظ، وأن التفرق مع التضييع. وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويقول: "لو أتيت بذراع لأكلت، ولو دعيت إلى كراع[9] لأجبت" ولقد لفقت[10] سعدى بنت عوف إزار طلحة[11] وهو جواد قريش، وهو طلحة الفياض، وكان في ثوب عمر رقاع أدم وقال: من لم يستحى من الحلال خفت مؤونته وقل كبره، وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يلبس الخلق[12].. فترقيع الثوب يسجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين.. وعبتمونى حين قلت: لا يغترن أحدكم بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عظمه

---

١ السد: السلة

٢ الرطبة: التمر المرطب

٣ نهم: شره

٤ لكعاء: لئيمة

٥ خرقاء: حمقاء

٦ خصف النعال: ترقيعها وإصلاحها

٧ تصدير القميص: ترقيع صدره

٨ أوطأ: ألين

٩ الكراع: مستدق الساق

١٠ لفقت: ضمت جانباً منه إلى آخر وخاطتهما

١١ هو طلحة بن عبيد الله كان غيثاً مدراراً فى الكرم فلقب بالفياض

١٢ الخلق: البالى

ووهن قوته وأن يرى أكرومته[1] فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله أن يكون معمراً وهو لا يدرى، وممدوداً له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبآت الدهور، مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما يكون به الكسب، فعبتمونى بذلك وقد قال عمرو بن العاص: أعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً.. وعبتمونى حين زعمت أنى اقدم المال على العلم، لأن المال به يقاد العلم، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضل العلم، فهو أصل والأصل أحق بالتفضيل من الفرع، وإنى قلت: إن كنا نستبين المور بالنفوس فإنا بالكفاية نستبين وبالحلة[2] نعمى[3]. وقلتم: كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الأدباء: العلماء أفضل أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء، قيل: فما بال العلماء يأتون باب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى ولجهل الأغنياء بفضل العلم. فقلت: حالهما هي الفاصلة بينهما، وكيف يستوى شئ ترى حاجة الجميع إليه وشئ يغنى بعضهم فيه عن بعض.. وعبتمونى حين قلت إن فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار، إن احتيج إليها استعملت، وإن استغنى عنها كانت عدة.. وقال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عز في قلبك وذل في قلب عدوك ولكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً. ولسنا ندع سيرة الأنبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لأصحاب الأهواء".

وبمثل هذه الحجج دافع سهل عن البخل، وهية حجج يستمد فيها من المأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وعن حكماء الأمم القديمة وخاصة حكماء أمته الفارسية، مما يدل على اتساع ثقافته. وليس هذا ما يلفتنا وحده في تلك الحجج فإنه يلفتنا فيها أيضاً قدرته المنطقية التية تتضح في إيراد الأقسام المتقابلة إيراداً مستقصياً، كما تتضح في استخدام

---

١ الأكروبة: فعل الكرم

٢ الخلة: الحاجة والفقر

٣ نعمى: فضل

الأقيسة وتصحيح الأدلة استخداماً دقيقاً، وفى تضاعيسق ذلك تتضح غزارة فكره ومكأنه يستمد من معين لا ينضب، كما يتضح إلحاحه على المعاني حتى لكأنه يريد أن يحصرها ويحيط بكمل دقائقها، وتأمل في رده على من يستحث الهرم على إنفاق ماله على النسا وفى الملذات، وفى الوجوه التي وضعها تحت عينه مخوفاً له ومحذراً من تضييع مالهع، فستراه يجمع هذه الوجوه في استقصاء وتفصيل دقيق، فهو قد يعمر، وقد يرزق الولد، وقد تنزل به بعض الكوارث، وحينئذ إما أن تحاول استرداد ماله من بعض من أعطاه لهم. ويرد خائباً محسوراً. وإما أن يشكو إلى بعض الناس قلته ولكن لن يرحموه، وفى الحالين يكون قد ضعف عن الكسب وطلب الرزق وبذلك ضيق سهل الأبواب على من يتسع في العطاء والإنفاق حين تتقدم به السن، بل لقد أغلقها إغلاقاً إلا باباً واحداً فتحه على مصاريعه هو باب الشح. وتؤديه غزارة معانيه وأفكاره وحججه وادلته إلى أن يثير موضوعاً طريفاً، هو الموازنة بين العلم والمال وأيهما أفضل من صاحبه، ويورد من الأدلة ما يجعل المال يفضل العلم، ويقتبس من الفقهاء حديثهم عن الًول والفروع، فيجعل المال الأصل والعلم الفرع، ولا يستوى فرع وأصل. وسهل في ذلك كله يرينا تطور العقل في العصر العباسي ومدى ما أصابه من رقى ومن نمو ثراء ومن قدرة على الحجاج وبسط الأدلة، حتى ليتحول الكاتب بإزاء بعض الموضوعات إلى ما يشبه مناظراً جدلاً، لا يزال يورد من الحجج والأدلة المنطقية ما يحاول به أن يفحم خهصمه ويقهره، ويظهر أن هذه الطريقة استقرت في نفس سهل بتأثير المتناظرين من المتكلمين في عصره وكثرة مناظراتهم في كل شئ، في العقيدة وغير العقيدة، وكان يرى الناس من حوله يعجبون بالظافر المنتصر على خصمه، وخاصة حين يدافع عن راى ضعيف، فينصره نصراً مؤزراً، على نحو ام نصر البخل على الكرم، ومن أجل ذلك نفتح الباب للظن بأنه ربما لم ينصره شعوبية على العرب، وإنما نصره إظهاراً لقوة جدله ومقدرته في صوغ الأدلة وتأليف الحجج والبراهين، أو على الأقل كان بيان قدرته على الدفاع عن البخل الأثيم أقوى في نفسه من الطعن على فضيلة الكرم العربية. ومما يوضح هذا الجانب عنده أن نراه يفضل الزجاج على الذهب في رسالة طويلة وكان سبب كتابته لها أن رأى النظام يذم الزجاج، كما رأى شدداً الحارثى يطنب في وصف الذهب، فكتب هذه الرسالة

معارضة لهما ونصرة للزجاج الضعيف وقد سقطتمن يد الزمن إلا قطعة منها رواها صاحب سرح العيون، وهى تمضى على هذا النمط:

"الزجاج مجلو نورى، والذهب متاع سائر، والشراب في الزجاج أحسن منه في كل معدن، ولا يفقد معه وجه النديم، ولا يثقل اليد، ولا يرتفع في السوم[1] واسم الذهب يتطير منه، ومنة لؤمه سرعته إلى اللئام، وهو فاتن فانك[2] لمن صانه، وهو أيضاً من مصايد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجال الأحمران[3]. والزجاج لا يحمل الوضر[4] ولا يداخله الغمر[5] ومتى غسل بالماء وحده عاد جديداً، وهو أشبه شئ بالماء، وصفته عجيبة، وصناعته أعجب".

ولسهل بجانب رسالته الأدبية الطويلة رسائل إخوانية يتضح فيها جمال التعبير ودقة التفكير على نحو ما نرى في الرسالة التالية[6]، وقد كتب بها إلى صديق تماثل للشفاء من مرض:

"بلغنى خبر الفترة[7] في إلمامهما وانحسارها، والشكاه في حلولها وارتحالها، فكاد يشغل القلق بأوله، عن السكون لآخره، وتذهل الحيرة في ابتدائه، عن المسرة في انتهائه. وكان تعيرى في الحالتين بقدرهما ارتياعاً للأولى وارتياحاً للأخرى".

وواضح ما في هذه الرسالة الموجزة من الغوص على المعاني، فهو يقابل بين خبر المرض وخبر الشفاء، وكيف شغلته حركة القلق مع الخبر الأول عن السكون وراحته مع الخبر الثانى، وكيف أذهلته الحيرة وكربها أولاً عن المسرة ومتعتها ثانياص. ويقول إن ما دخله من تغير في الحالين يقاس بارتياعه مع بدء العلة وارتياحه مع انحسارها. وهو في جميع جوانب كتاباته شديد الغوص والتدقيق في معانيه، وجاء السجع على لسانه في أكثر هذه الرسالة، وهو إنما يجئ عنده أحياناً عفواً وليس معنى ذلك انه لم يكن يعنى بتوفير الجمال لأساليبه فهو من هذه الناحية يتقدم

---

١ السوم: المساومة فى البيع

٢ فانك: غالب

٣ الأحمران: الذهب وطيب الزعفران

٤ الوضر: الوسخ

٥ الغمر: الدسم

٦ انظرها فى سرح العيون ص ٢٤٥

٧ الفترة: الوعكة والضعف

ابن المقفع خطوات، إذ يعنى ببسط عباراته، حتى يجرى فيها ضروباً من التقطيعات والتوقيعات الصوتية ومن أجل ذلك يكثر عنده الترادف، حتى يصل إلى ما يريد من ازدواج وإيقاعات متقابلة، ودائماً حين نقرؤه يلذ عقولنا بغزارة معانيه ودقتها، كما يلذ أسماعنا بجرس كلامه وحسن أدائه وما يكفل له من تلوينات صوتية بديعة.

٣

أحمد[١] بن يوسف

هو أحمد بن يوسف بن صبيح الكاتب الكوفى مولى بنـي عجـل، وقـد ألمنـا بأبيـه في الفـصل الماضى وقلنا إنه كان يكتب في دواوين الكوفى لولاة بني أمية، ثم لما تحولـت مقاليـد الخلافـة إلى العباسيين كتب لعبد الله بن على ثم التحق بدواوين المنصور، وظـل يكتـب في دواويـن المهـدي والهادى، ولمع نجمه في عصر الرشيد والبرامكة، فكان يخلف يحيى البرمكـي عـلى الـدواوين في قصره وقصر الرشيد. ولا نعرف بالضبط متى ولد له ابنه أحمد، ويغلب أن يكون ميلاده حـول منتصف القرن الثانى للهجرة، ويظهر أنه عنـى بتأديبـه عنايـة واسـعة، كـى يـصلح للعمـل في الدواوين على شاكلته، فأخذه بثقافة عربية دقيقة حتى غدا شاعراً يحسن نظم اغلشعر وصـوغه، كما أخذه بثقافة إسلامية واسعة، حتـى يعـرف الحـدود وأحكـام أهـل الذمـة وأصـول الـدين وفروعه، وأخذه أيضاً بثقافة رياضية واسعة تعينه في الخراج وشئونه.

ولابد أن يكون قد أخـذه بثقافـات العجـم ممـا يتـصل بـآداب الـسياسة وبكتـب الفلـسفة والحكمة، ولابد أن يكون أيضاً قفد أخهذه بآداب اللياقة حتى يحسن مخاطبة الخلفاء والـوزراء، وحتى الخط نراه يوجهه إلى إتقانه مم اجعله يشتهر مع فصاحته وبلاغته بحسن خطـه، ويـروى أن قائلاً له يوماً: ما أدرى مم أعجب، مما وليه الله من حـسن خلقـك أو ممـا وليتـه مـن تحـسين أخلاقك.

وعلى هذا النحو أعد أحمد بن يوسف ليكون مثالاً للكاتب الحاذق النابه، وأغلـب الظـن أن أباه ألحقه بالدواوين معه، وأنه كتب بين يديه في دواوين الرشيد، وأعجبـت الفـضل بـن سـهل مدبر شئون المأمون نجابته، فالتقطه وحثه على التحول معه ومع المـأمون إلى مـرو حـين اتخـذها

---

١ انظر فى ترجمة أحجمد بن يوسف وأخباره كتاب الوراق للوصلى (قسم الشعراء) من ١٤٣، ٢٠٦ وكتاب غبداد لطيفـور فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥/ ٥١٦ والأغانى (طبعـة الـساسى) ٢١٠/ ٥٦ وزهر الآداب ٢/ ١٣٠ والفخرى ص ١٦٩ ومعجم الأدباء لياقوت ٥/ ١٦١ وغرر الخـصائص الواضـحة للوطـواط ص ١٠٩ وانظر الجهشيارى ص ٣٠٤ واللعقد القريد ٢/ ١٤٥

قاعدة لولايته على شرقى الدولة كى يكتب في دواوينه، وأذعن لرغبته، وظل يعمل في الدواوين هناك، حتى بعث طاهر بن الحسين في سنة ١٩٨ إلى المأمون برأسش أخيه الأمين، فلما رآها تأثر، وقال للفضل ابن سهل: ينبغي أن تأمر الكتاب بكتابة رسالة عن طاهر يخبرنى فيها بهذا الخبر، مع الاحتيال للاعتذار منه، لتقرأ على الناس، فكتب الكتاب عدة كتب لم يرضها الفضل واستطالها. ولم يلبث أحمد بن يوسف أن كتب رسالة محكمة موجزة في شبر من قرطاس كما يقول بعض الرواة، فلما عرضها على الفضل رجع نظره فيها مستحسناً متعجباً من بلاغته ودقة بيانه، ثم قال له: ما أنصفناك وأمر بصلات وفرش وكسى وآلات. وقال له: إذا كان الغد فاقعد في الديوان وليقعد جميع الكتاب بين يديك، واكتب بذلك إلى الآفاق.

ويدور العام، فيجعل المأمون الحجسن بن سهل نائبه على بغداد، فيصطحبه معه، وكأن أخاه الفضل آثره به، ليعينه في عمله، ويكتب له في دواوينه ويقدم المأمون إلى بغداد بعد خمس سنوات، فيصبح كاتبه على ديوان الرسائل كما يصبح أثيراً عنده قريباً من نفسه، لظرفه ورقته. وكان فيه ميل شديد إلى الترف فعاش عيشة يحفها النعيم في الفرش وأوانى الطعام وألوانه. وشارك في متاع عصره من الشراب والسماع للقيان، ولكن دون إغراق ومع الاحتفاظ بمروءته وكرامته. ولما توفى أحمد بن أبي خالد وزير المأمون سنة ٢١١ شاور الحسن بن سهل فيمن يخلفه على الوزراةو فأشار عليه بابن يوسف، فاستوزره ورفع منزلته، فكان يعرض القصص أو رقاع الشكوى علهي، ويوقع عليها بما يلائمها من العبارات، غير أنه لم يلبث أن وافاه القدر سنة ٢١٣ للهجرة، ويقال إنه اشر ف، وهو على وشك الاحتضار على بستان داره وكانت مطلة على دجلة، فظل يتأمله ويتأمل دجلة، ثم تنفس، وقال:

ما أطيبَ العيشُ لولا موتُ صاحبِهِ ... ففيه ما شئتَ من عيبٍ لعائبِهِ

وسرعان ما التقمه الموت. ولأخيه القاسم الشاعر رثاء له يتفجع فيه تفجعاً، وكانت له جارية يقال لها نسيم كانت تحظى بحبه ويشغف بها شغفاً شديداً، فقالت ترثيه:

ولو أَن مَيْتاً هابه الموتُ قبله ... لما جاءه المِقْدارُ وهو هيوبُ

ولو أَن حَيًّا قبله جازه الرَّدَى ... إذنْ لم يكن للأَرض فيه نَصيب

وهو يُعَدُّ في الذروة من كُتَّاب الدواوين في العصر العباسي الأول، لبلاغته ودقة تفكيره وحسن تأتيه في الرسائل الديوانية السياسية والرسائل الإخوانية الشخصية، وأول ما نقف عنده رسالته التي أشرنا إليها آنفاً، والتى كتبها الناس على لسان طاهر بن الحسين، وهى تجرى على هذه الصورة[1]:

"أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة (القرابة) فقد فرق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه في الولاية والحرمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، يقول الله عز وجل فيما اقتص علينا من نبأ نوح وابنه: (يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح) ولا صلة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله. وكتبت إلى أمير المؤمنين، وقد قتل الله المخلوع ورداه[2] رداء نكثه، وأحسد[3] لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له ما كان ينتظر من وعده، فالأرض باكنافها[4] أوطأ مهاد لطاعته، وأتبع شئ لمشيئته.. والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، والكائد له من خان عهده ونكث عقده، حتى رد به الألفة بعد فرقتها، وجمع به الأمة بعد شتاتها، وأحيا به أعلام الدين بعد دروسها[5]، والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته".

ودقة التعبير واضحة في الرسالة، وكذلك المهارة في تصوير عصيان الأمين والربط بينه وبين عصيان ابن نوح وما وصفه به القرآن من دفعه عن بنوة أبيه وقرابته. وبذلك لم تعد للأمين ولاية ولا حرمة، فقد خرج من أهله، وهو إنما تولى الخلافة ميراثاً منهم، وقد نكث عهده في الوفاء لأخيه بولاية العهد من بعده، هذا العهد الذي كتبع بيده وعلقه أبوه هرون على الكعبة، حتى لا يستطيع الخروج منه، وقد نال جزاء خيانته، وعادت الأمور إلى نصابها، فاجتمعت كلمة الأمة بعد فرقتها ورد صولجان الحكم إلى صاحبه تحوطه عناية الله ورعايته، وكان توفيق

---

١ زهر الآداب ٢/ ١٣٠ وعجم الأدباء، ٥/ ١٦٧ والجهشيارى ص ٣٠٤

٢ وداه: ألبسه

٣ أحصد: قوى وأحكم

٤ أكنافها: نواحيها

٥ دروسها: امحائها

أحمد بن يوسف في هذه٩ الرسالة دافعاً لأن يطلب منه المأمون والفضل بن سهل أن يكتب رسالة الخميس، وهى الرسالة التي كان يوجهها خلفاء العصر العباسي الأول بمجرد توليهم الخلافة إلى أهل خراسان مادة جيوشهم وغيرهم يبسطون فيها حقهم في الخلافة واستحقاق الخليفة القائم لها لما امتاز به من مناقب حميدة وما ينبغي على أهل خراسان من الولاء له. وأحكم ابن يوسف الرسالة إحكاماً دقيقاً، وطال فيها نفسه حتى بلغت نحو خمس عشرة صحيفة، وأعجب بها معاصروه إعجاباً شديداً مما جعل ابن النديم يقول: "الكتب المجمع على جودتها: عهد أردشير، كليلة ودمنة، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية، اليتيمة لابن المقفع، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف" وقد استهلها بتحميد طويل طريف على هذا النمط[1]:

"من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق والناصرين للدين، من أهل خراسان وغيرهم من أهل الإسلام: سلام عليكم فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله، أما بعد فالحمد لله القادر، القاهر، الباعث، الوارث، ذى العز والسلطان، والنور والبرهان، فاطر[2] السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول[3] على أهلهما، قبل استحقاقهم لمثوبته، بالمحافظة على شرائع طاعته. الذي جعل ما أودع عباده من نعمته، دليلاً هادياً لهم إلى معرفته، بما أفادهم من الألباب[4]، التي يفهمون بها فصل الخطاب، حتى أقيموا على موارد الاختبار، وتعقبوا مصادر الاعتبار، وحكموا على ما بطن بما ظهر، وعلى ما غاب بما حضر، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومتقن صنعته، وحاجة متزايل[5] خلقه ومتواصله إلى القوم[6] بما يلمه ويصلحه، على أت له بارئاً[7] هو أنشأه، وابتدأه ويسر بعضه لبعض، فكان أقرب وجودهم ما يباشرون من أنفسهم في تصرف أحوالهم،

---

١ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٣٧٧

٢ فاطر: خالق

٣ الطول: الإنعام

٤ الألباب:/ العقول

٥ متزايل: متفرق

٦ القوم: القيام

٧ بارئاً: خالقاً

وفنون انتقالهم، وما يظهرون[1] علهي من العجز عن التأنى[2] لما تكاملت بـه قـواهم، وتمـت بـه أدواتهم ن مع أثير تدبير الله وجل وتقديره فيهم، حتـى صـاروا إلى الخلقـة المحكمـة، واصـورة المعجبة، ليس لهم في شئ منها تلطفيتيممونه، ولا مقصد يعتمدونه من أنفسهم، فإنه قـال تعـالى ذكره: (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شـاء ركبك). ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الـشمس والقمـر والنجـوم مسخرات، على مسير من تصاريف الأزمنة التي بهـا صـلاح الحـرث والنـسل وإحيـاء الأرض ولقاح النبات والأشجار، وتعاور[3] الليل والنهار، ومر الأيام والشهور والسنين التي تحصى بهـا الأوقات. ثم ما يوجد من دلائل التركيب في طبقـات الـسقف[4]المرفـوع، والمهـاد[5] الموضـوع، باتساق أجزائه والتئامها، وخرق الأنهار وإرساء الجبال. ومن البابن الشاهد على ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق حدوثه بعد أن لم يكن، متقياً في النماء، وثباتـه إلى أجلـه في البقـاء، ثـم محاره[6] منقضياً إلى غاية الفناء. ولو لم يكن له مفتتح عدد، ولا منقطع أمد، مـا ازداد بنـشوء ولا تحيفه نقصان، ولا تفاغوت على الأزمان، ثم ما يوجد عليه منفعته من ثبات بعضه لبعض وقوام كل شئ منه بما يسر له في بدء استمداده، إلى منتهى نفاده، كما احـتج الله عـز وجـل عـلى خلقـه، فقال: (أو لا يذكر الإنساتن أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) وقال عز وجل: (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام). وكل ما تقـدم مـن الإخبـار عـن آيـات الله عـز وجـل ودلالاته في سمواته التي بنى، وأطباق الأرض التي دحا[7]، وآثار صنعه فيما بـرأ، وذرأ[8]، ثابـت في فطر العقول حتى يستجر أولى الزيغ ما يدخلون على انفسهم من الشبهة فيما يجعلـون لـه مـن

---

١ يظهرون: يطلعون

٢ التأنى: الترفق

٣ تعاور: تداول

٤ السقف المرفوع: السماء

٥ المهاد الموضوع: الأرض

٦ محاره: رجوعه

٧ دحا: بسط

٨ برأ وذرأ: خلق

الأضداد، والأنداد، جل عما يشركون. ولولا توحده بالتدبير، عن كل معين وظهير، لكان الشركاء جدراء أن تختلف بهم إرادتهم في الخلق، ولأمكن التخلف فيه من إثبات وإزالة فيخلو من أحد وجهيه، وأيهما كان فيه فالعجز والنقص فيما ذرأه وبرأه، جل البديع خالق الخق ومالك الأمر عن ذلك، وتعاليعلواً كبيراً، كما قال سبحانه: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)".

وواضح أن أحمد بن يوسف تحول بهذا التحميد إلى ما يشبه مقالة من مقالات المتكلمين، فهو يورد فيه الحجج على وجود الله الذي أنشأ العالم وخلق الإنسان في صورة مقدرة محكمة، وقد أعطاه من العقل ما يجعله إذا فكر في خلق السموات والأرض يؤمن بأن للعالم إلهاً، لما يجرى في أفلاكه من نظام دقيق لابد له من منظم، أحكم تصاريف الأوقات التي يتم بها صلاح كل حى في الأرض من إنسان وحيوان ونبات كما أحكم صنعة الكون في عالم السماء وعالم الأرض بما مهد فيه من سهول وخط من أنهار وأرسى من جبال. ويتعمق في الدلالة على وجود الخالق البارئ وإنشائه للخلق أنهم يحدثون بعد أن كانوا معدومين وأنهم لا يزالون يرقون في النمو حتى تمتد لهم يد الفناء، فلابد من محدث لهم، وفرق واضح بينه وبين الحادث، فالحادث له أول وله آخر، أو كما يقول: "مفتتح عدد، ومنقطع أمد" أما المحدث فلا أول له في الزمن ولا آخر. وهو مصدر الوجود وقوامه، وهومدبره ومصرفه، ويقول إن كل ما ذكره من دلالات على وجود الله ثابت في فطر العقول السليمة، وثابت معه أنه واحد أحد لا شريك له، إلا عند من زاغت عقولهم ممن يجعلون له الأضداد والأنداد كمجوس الفرس الذين آمنوا بأن للعالم إلهين: إلهاً للخير وإلهاً للشر، وكغيرهم ممن جعلوا له ندين أو أكثر، ولو صح ذلك لتفاوتت إرادة الآلهة في الخلق واختلفوا فيه بين الإثبات والإزالة، وبذلك يخلو الخلق من أحد وجهيه، ويتم العجز والنقص على الله فيما برأع عليه من الحدوث ثم العدم أو من الإثبات ثم الإزالة، وعلى هذا النحو يتطور التحميد عند أحمد بن يوسف في رسالة الخميس إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً في الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم. ونلاحظ أيضاً في هذا التحميد أن أحمد بن يوسف يحاول أن ينمق فيه ما وسعه التنميق وجره ذلك إلى الاتساع باستخدام السجع فيه، وهو لا يطرد في كل صياغات التحميد ولا في بقية الرسالة، ولكنه يكثر، ونحس

كأن ابن يوسف يقصد إليه قصداً، وخاصة حين نراه يسجع بين كلمة وكلمة. ويمضى فيتحدث عن نعمة الله على خلقه بإرسال أنبيائه وتعاقبهم بالنور الساطع والبرهان القاطع مبشرين ومنذرين حتى ختمهم بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويصور جهاده في سبيل دعوته ورسالته حتى أعز الله كلمته واستقام دينه ودخل الناس فيه أفواجاً. ويتحدث عن حق العباسيين في الخلافة، إذ ورثوها بحكم قرابتهم للرسول صلوات الهل عليه، وكانوا أحق بميراثها من جميع آله، وبذلك يخوض في تأييد الدعوة العباسية. وينتقل من ذلك إلى تأييد الدعوة للمأمون بادئاً بتقرير موقفه من الأمين ومسترسلاً فيما ينبغي على شيعته الخراسانيين من مواصلتهم نصرته. ويفيض في وعظهم وما ينبغي عليهم من مجاهدة أعدائهم وأهوائهم ومن الشكر للمأمون الذي يحوطهم برعايته لما فيه خيرهم ورشدهم والذى ينتوى جزاءهم بالحسنى وحملهم على الطريقة المثلى.

وطلب إليه الحسن بن سهل حين ولاه المأمون وزارته بعد قتل أخيه الفضل سنة ٢٠٢ للهجرة أن ةيكتب رسالة يشكر المأمون فيها على صنعه جبراً لمصابه، فكتب رسالة ضافية[1]، استهلها بتحميد الله وذكر آلائه واصطفائه محمداً لرسالته بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وتقفيته على آثار الآئمة الراشدين بالمأمون أمير المؤمنين. وأخذ يطنب في الثناء على عدله وما منح الرعية عن عطفه، وأشاد باختياره عليا الرضا لولاية عهده ومؤازرة الفضل بن سهل له في رعاية رعيته والقيام بدعوته وقمع أعدائه، حتى حم أجله شهيداً فقيداً من إمامه ومن الخاصة والعامة. ويتجه إلى شيعته وشيعة الحسن بن سهل بتصوير حرمة الفضل عند المأمون بعد موته وإكثاره من الترحم عليه. ويشكره بلسان الحسن بن سهل على ما منحه من الوزارة وسنى الرتبة. ويعود إلى بيان ما خص به الفضل في حياته من المنزلة الرفيعة ومن ياسة الحرب ورياسة التدبير وتقليده سيفه وخاتمه وما خصه في وفاته من إكرام ومن حزن ممض وعبرات سائلة ومن حفظ لأصحابه وإقرار خاصته وقواده وعماله وكتابه على مراتبهم وما أولى الحسن أخاه من وزارته وعطفه. ويفيض في التنويه بالمأمون وقضائه على خصومه شرقاً وغرباً ورحمته بفقراء المسلمين وضعفائهم وما اقترن له من الملك والدين والقدة والعفو، ويشكره عن

١

الإسلام ونصرته له وعن المساجد وتأسيسها على التقوى وتلاوة القرآن وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وحفظه لعترته وآله وعن القواد والأجناد وما رفع من منازلهم ووفر من رواتبهم، وعن الأخلاق وما وطد من شيمها الرفيعة وعن المسلمين وما رعى من شئونهم وهزم من أعدائهم، ويختم الرسالة بالدعاء له دعاء كثيراً: أن يرأب الصضدع وترتق الفتوق به وينكل في أعدائءه.

ولأحمد بن يوسف رسالة في تهنئة عبد الله بن طاهر بقضائه على ثورة عبيد الله ابن السرى بمصر وأخرى في تعنيت بعض العمال على ظلم أنزله ببعض الناس، ولكنهما لا تبلغان من التنميق ما بلغته الرسائل السابقة. ومن طريف رسائله الديوانية ما كتب به عن المأمون إلى عمال النواحى في الاستكثار من القناديل بالمساجد في شهر رمضان، وقد جاء فيها[1]:

"فإن في ذلك عمارة للمساجد، وإضاءة للمتهجدين[2] وأنساً للاسبلة[3]، ونفياً لمكامن الريب، وتنزيهاً لبيوت الله عز وجل عن وحشة الظلم"

وكان يكتب أحياناً إلى المأمون في بعض الشئون، فيتلطف غاية التلطف، ومما يروى له من ذلك أن طلاب الصلات كثروا بباب المأمون، وتأخرت صلاتهم، فلما طال ذلك عليهم كتب إليه[4]:

"إن داعى نداك، ومنادى جدواك[5]، جمعاً ببابك الوفود، يرجون نائلك[6] للعهود، فمنهم من يمت بحرمة، ومنهم من يدلى بسالف خدمة وقد أجحف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهخم بسيبه[7]، ويحقق حسن ظنهم بطوله[8]، فعل إن شاء الله".

---

١ النصاعتين للعسكرى ص ٢٣ وزهر الآداب ٢/ ١٣٢

٢ المتهجدين: من التهجد وهو الصلاة فى جوف الليل

٣ السابلة: السائرون فى السبل ولا مأوى لهم

٤ زهر الآداب ٣/ ١٣١ ومعجم الأدباء ٥/ ١٦٩

٥ الجدوى: العطية والنوال

٦ النائل: النوال والعطاء

٧ السيب: العطاء

٨ الطول: الإنعام

فوقع المأمون في كتابه: الخير متع، وأبواب الملوك مغان[1] لطالبي الحاجات ومواطن لهم. وأمره أن يكتنب أسماء من بالباب ومراتبهم ليصير لكل شخص منهم قدر استحقاقه.

وكان كثيراً ما يهدى إلى المأمون هدايا في أيام النيروز[2]، ويرفقها برسالة رقيقة، تحمل سطراً أو سطرين من النثر وبعض أبيات من الشعر، فمن ذلك أن أهداه مرة- فيما يقول الرواة- سقط ذهب فيه قطعة عود هندى في طوله وعرضه، وكتب معه[3]:

"هذا يوم جرت فيه العادة، بإتحاف الناس السادة، وقد قلت:

على المرءِ حقٌّ وهْو لا شك فاعلُهْ ... وإن عَظُم المولى وجلَّتْ فَواضِلُهْ[4]

ألم ترنا نُهدى إلى الله مالَهُ ... وإن كان عنه ذاغِنًى فهْو قابله

ولو كان يُهدَى للجليل بقدرهِ ... لقصَّر عنه البَحْر يوماً وساحله

ولكننا نُهْدِى إلى من نُجِلُّهُ ... وإن لم يكن في وُسْعنا ما يشاكلُهْ"

وروت كتب الأدب كثيارً من الرسائل الإخوانية لأحمد بن يوسف، وهو فيها يتروى ويتأنق في اختيار لفظه، مع حسن البابن ورصانة القول، من ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يهنئه بمولوده له[5]:

"بارك الله في مولودك الذي أتاك وهنأك نعمته بعطيته، وملاك[6] كرامته بفائدته، وأدام سرورك بزيادته، وجعله باراً تقياً، ميموناً مباركاً زكياً، ممدوداً له في البقاء مبلغاً" غاية الأمل مشدوداً به عضدك، مكثراً به ولدك، مداماً به سرورك مدفوعاً به الآفات عنك، مشفوعاً بأكثر العدد، من طيب الولد".

---

١ مغان: منازل ومواطن

٢ النيروز: من أعياد الفرس وهو أول يوم عندهم فى السنة

٣ صبح الأعشى ٢/ ٤٢٠

٤ الفواضل: النعم

٥ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٤٨٣

٦ ملاك: متعك

وهو دائماً في التهنئة بالمواليد يتحجدث عن أنها نعمة من الله وهبة، ويدعو للأب أن تقر عينه بابنه، وأن يبارك الله له فيه، ويجعله باراً بأبويه، تقياً زكياً ميموناً سعيداً، وأن يشد بـه أزر الوالـد ويكثر من أحفاده: أولاد هذا الولد الصالح. وله من تهنئة لأحد إخوانه بإبلاله من مرضه[1]:

"قد أذهب الله وصب العلة ونصبها[2]، ووفـر أجرهـا وثوابهـا، وجعـل فيهـا إرغـام العـدو بعقباها[3]، أضعاف ما كان عنده من السرور بقبح أولاها".

وتأنقه في العبارة واضح لا بما يجرى فيها من سجع فحسب، بل بما يوفر أيضاً في أوائلها مـن ترادف النصب مع الوصب والثواب مـع الأجـر، ليـستتم الجـمال الـصوتى. ومـن رسـائله في الشكر[4]:

"من اتسع في الأفضال[5] اتسعت به اظلقوال من شاكر مثن، ومادح مطر، ولسنا نصفك بـما يعن لنا، ويذل على ألسنتنا، مما يتقرب به ذو الرغبة، ويضرع به ذو الهربة، لاستنزال مرغوب، او استنجاز مطلوب، ولكننا ننطق عن سيرتك بإفـصاح، ونبـين عنهـا بلإيـضاح، فنكـف شـغب الكائد، ونطيل نفس الحاسد".

وسجعه المطرد في هذه الرسشالة ليس معناه أنه كان يسجع دائماً ن فهو يسجع حينـاً، وحينـاً لا يسجع، ولكنه يعنى كما قلنا بالترادف بين اللفـاظ والعبـارات، عـلى نحـو مـا نـرى في هـذه الرسالة إذ تلا كلمة "شاكر مثن" بكلمة "مادح مطر" وهـى بـنفس معهناهـا، لـيحكم لتعبـيره التلاؤم الصوتى والتعادل الموسيقى، وهو مـا كـان يـسميه القـدماء بـالازدواج، ودائـماً تـتردد أساليبه بينه وبين السجع على شاكلة قوله في المديح[6]:

---

١ العقد الفريد ٤/ ٢٣٩

٢ النصب: التعب الشديد، والوصب: الوجع

٣ عقباتها:/ عاقبتها

٤ الروقا للصولى (قسم الشعراء) ص ٢٣٣

٥ الأفضال: النعم والأيادى

٦ الصولى ص ٢٣٢

"لقد أحلك الله من الشرف أعلى ذروته، وبلغك من الفضل أبعد غايته، فالآمال إليك مصروفة، والأعناق إليك معطوفة. عندك تنتهى الهمم السامية، وعليك تقف الظنون الحسنة، وبك تثنى[1] الخناصر، وتستفتح أغلاق المطالب، ولا يستريث[2] النجح من رجاك، ولا تعروه النوائب في ذراك[3]".

وعلى نحو ما كان يتفنن في المدح والثناء كان يتفنن في الذم والهجاء، وكان أحياناً يخز فيه وخز الإبر أحياناً يطعن طعنات مدمية، من ذلك ما كتب به إلى آل سعيد بن سلم[4]:

"لولا أن الله عَزَّ وجَلَّ ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم وكُتُبَهُ بالقرآن لبعث لكم نَسبيَّ نِقْمة، وأنزل فيكم قرآن غَدْر، وما عَسَيْتُ أن أقول في قوم: محاسنهم مساوى السفِّلة، ومساويهم فضائح الأمم، وألسنتهم معقولة بالعِيّ، وأيديهم معقودة بالبخل، وأعراضهم أغراض الذم، وهم كما قال الشاعر:

لا يكثرون وإن طالتْ حَياتُهُمُ ... ولا تَبيد مخازيهم وإن بادوا

وله معاتبات واعتذارات كثيرة، وكان يعرف في الأولى كيف يتحدث عن رعاية حق الصديق، كما كان يعرف في الثانية كيف يتسع بالحجة والفكرة اللبقة، حتى يستل من صاحبه عفوه ورضاه، من ذلك ما كتب به إلى أحد أصدقائه[5]:

"أتيتك وافداً بذنوبى على عفوك، واثقاً لعقوقى ببرك، لا مستظهراً عليك بشفيع قدمته، خلا تطولك[6] بالعفو عن الإخوان، وتفضلك عليهم بالإحسان، فإن تعاقب فقد حكمت بالمعدلة[7] بعقوبتك على نفسى، وإن تجاف عن ذلك فإن الله يعلم ظأن قلبى لم يصر لك على قطيعة، وكل

---

١ تثنى الخناصر: كناية عن أن الآمال تعقد به

٢ يستريث: يستبطئ

٣ الذرا: الكنف والظل

٤ وزهر الآداب ٢/ ١٣٢

٥ جمهرة رسائل العرب ٣/ ٤٥٢

٦ تطولك: تفضلك

٧ بالمعدلة: بالعدل

ذنب كان أصله الاسبتطاء لدالة الحرمة، والاستعطاف بماتة[1] الخدمة، فهو مما يعد في الحسنات، لا السيئات".

وتدور في كتب الأدب له توقيعات طريفة كان يوقع بها على رقاع الشكوى. وزكتب بعض العمال ورسائل الاستماحة وبذل المعروف، فمن ذلك ما حكى الرواة من أن رجلاً غصب آخر ضيعة في أثناء غيابه واستغلها سنوات معدودة، فلما قدم طالبه بضيعته، فاشتكاه قائلاً: الضيعة لى وفى يدى، واطلع ابن يوسف على الشكوى، فوقع عليها بقوله[2]:

"الحق لا تخلق جدته، وإن تطاولت بالباطل مدته، فإن أنطقت حجتك بإفصاح، وأزلت مشكلها بإيضاح- غير. "لى في يدى" فكثيراً ما أراها ذريعة الغاصب، وحجة المغالب- وفر حقك عليك، وسبق بلا كد إليك، وإن ركنت من البين إليها، ووقفت عن الاحتجاج عليها كانت حجته بالبينة أعلى، وكان بما يدعيه أولى، إن شاء الله".

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور بلاغة أحمد بن يوسف وكيف أنها كانت تعتمد على غزارة في الفكر وبراعة في الأداء وهى براعة يتقدم بها من سبقوه من كتاب الدواوين في القرن الثانى الهجرى تقدماً واسعاً وخاصة في الرسائل السياسية، إذ تأنق في ألفاظها وعباراتها تأنقاً جعله يتخللها بالسجع، فإن لم يواته تخللها بالازدواج والترادف الصوتى، وبذلك أسبغ عليها ضروباً من الجمال الموسيقى لم تكن مألوفة قبه إلا في بعض الرسائل الإخوانية وبعض التوقيعات، على نحو ما مر بنا في الفصل السابق عند ابن سيابة وجعفر بن يحيى البرمكي. ولا ننسى سهل بن هرون، فقد كان يعنى مثله بازدواج والترادف والموسيقى غير أن ابن يوسف هو الذي أعد هذا الأسلوب وما طوى فيه من سجع ليشيع في الكتابات الديوانية.

---

١ ماتة: صلة

٢ جمهرة رسائل العرب ٤/ ٤٥٨

٤

عمرو[١] بن مسعدة

كان جده الأعلى صولا أحد ملوك جرجان، وكان من الترك الذين اعتنقوا المجوسية وتشبهوا بالفرس، وقد اعتنق الإسلام في زمن بنية أمية، ودخل ابنه سعيد في الدعوة العباسية، فلما نجحت صارت له منزلة في الدولة إذ كان من دعاتها النابهين، ولم يلبث خالد البرمكي أن استخلص ابنه مسشعدة للكتابة بين يديه في وزارته للسفاح الصمنور، وظل يعمل في دواوين الأخير حتى قلده وزيره أبو ايوب الموريانى رياسة ديوان الرسائل، ويولد له ابنه عمرو، فيعنى بتأديبه حتى يصلح للكتابة في دواوين الدولة. ويظهر أنه مضى يتثقف ثقافة عربية وإسملاية واسعة، حتى غدا لسناً فصيحاً، بل لقد غدا شاعراص ينظم الشعر، كما غدا يحسن شئون الفقه مما يتصل بالخراج، ووقف على العلوم الرياضية، وما يتصل بها من السحاب مما كان يشقفه الكتاب، كما وقف على آداب الفرس وكتاباتهم في السياسة والأخلاق وتدبير الحكم ن وربما وقف أيضاً على شئ من الفلسفة اليونانية والحكمة الهندية. وكل تلك كانت أدوات ترشح الشخص لكى يعمل في الدواوين لعصره، ويتقن العمل فيها، ويظفر بما يريد من الإعجاب والترقى في المراتب السنية.

وما نصل إلى زمن الرشيد والبرامكة حتى نجد جعفر بن يحيى البرمكي يستخلص عمراً لنفسيه، ويتخذه كاتباً للتوقيع بين يديه، إذ حدث عن نفسه قائلاً:

"كنت أوقع بين يدى جعفر بن يحيى فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم، فرمى بها إلى، وقال: أجب عنها، فكتبت: قليل دائم خير من كثير منقطع. فضرب بيده على ظهرى وقال: أى وزير فغى جلدك!". وأفادع عمله مع جعفر في التوقيعات إفادة واسعة، إذ كان جعفر يعنى- كما قدمنا- بتنميق عباراته والاقتصاد فيها أشد ما يكون الاقتصاد، فطبع بطوابعه البلاغية على نحو ما سنرى عما قليل.

---

١ انظر فى ترجمة عمرو بن مسعدة معجدم الأدباء ١٦/ ١٢٧ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٤٩٢ وتالريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/ ٢٠٣ وزهر الآداب ٣/ ٢٤٩.

ونتراه بعد ذلك متصلاً بالفضل بن سهل القائم على تدبير شئون المأمون حين كان يحكم من مرو الولايات الشرقية، وقد اتخذه كما مر بنا في غي هذا الموضع وزيراً له وأسلم إليه مقاليد الحكم، فما زال بالأمين حتى قضى عليه كما قدمنا، وبايع الناس المأمون بالخلافة، وظلا جميعاً بمرو حتى سنة ٢٠٢ للهجرة، فبارحاها قاصدين إلى بغداد، وقتل الفضل في الطريق، كما أسلفنا. وإنما ذكرنا ذلك لما نظنه من أن عمرو بن مسعدة إذا كان عمل في دواوين الفضل فلابد أن يكون عمل بها في مرو ن مثله مثل أحمد بن يوسف، وكأن الفضل أعجب به، فأدناه منه واصطحبه معه هناك. وعاد غلى بغداد، فعمل في دواوين أخيهالحسن وزير المأمون أو بعبارة أدق عمل في دواوين اتلخلافة، ووقع من نفس المأمون موقعاً حسناً فعهد إليه أحياناً تفتيش الولايات، ومازال يعجب به وببلاغته، حتى إذا رفع أحمد بن يوسف إلى مرتبة الوزارة أقامه على ديوان الرسائل، وكان يأنس له ويستطيب حجديثه، فلما أخذ في غزو الروم كان يستصحبه في غزواته. ولعظم منزلته عنده ظن الشعراء أنه استوزره، وذكر ذلك في بعض مديحه له، إذ يقول:

لقد أسعد الله الوزير ابن مسعدة وبث له في النسا شكراً ومحمده

وكان جواداً ممدحاً، كما كان فاضلاً نبيلاً حميد العشرةى محبباً إلى معاصريه، وما توافى سنة ٢١٧ للهجرة حتى يلبى نداء ربه بأذنه في غزوة مع المأمون. ويروى أنه لما مات رفعت إلى المأمون رقعة فيها أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم، فوقع على ظهرها:

"هذا قليل لمن اتصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيما خلف وأحسن لهم النظر فيما ترك".

وكان عمرو بن مسعدة يروع معاصريه ببلاغته، وهى تعد امتداداً لبلاغة جعفر بن يحيى البرمكي، تتصف بصفتين أساسييتين بارزتين هما الإيجاز الدقيق والوضح البالغ، وهما نفس الصفتين اللتين امتازت بهما بلاغة ابن مسعدة، أما ايجاز فقد بلغ منه أنه كان يضرب به المثل فيه، كما كان يضرب بجعفر بن يحيى من قبله، وكان يقول للكتاب: إذا استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا. وكأنما استقر ذلك في نفس عهمرو فإذا هو يحيل كتبه في مختلف

الأغراض إلى ما يشبه التوقيعات اختصاراً واقتصاداً في القول. وأما الوضوح فقد كان جعفر شديد الكلف به، وكثيراً ما كان يوصى به الكتاب من حوله، ومر بنا في الفصل الماضى وصف ثمامة بن أشرس المعتزلى لبلاغته ومدى ما كان يجرى فيها من بيان ووضوح وإيجاز شديد، ويروى أن الفضل ابن سهل وصف بلاغة ابن مسعدة فقال: "هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثل كتبه فإذا رامها تعذرت عليه[1] ". وهذا كما قيل لجعفر بن يحيى: ما حد البلاغة ؟ فقال: التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فإذا رامها استصعبت عليه.

وليس هذا كل ما أخذ عمرو بن جعفر، فقد كان جعفر يتأنق في اختيار لفظه، حتى لينمقه أحياناً بالسشجع الرشيق، فحاكاه عمرو في تنميقه وتأنقه وإشاعة السجع أحياناً في كلامه، وخاصة غذا كان موجزاً وطال نظره فيه، إذ كان لا يزال يبحث عن اللفظة الملائمة التي تروق في السمع، كما يبحث عن المعنى الدقيق، فالكتابة عنده وخاصة إذا اتجه بها إلى الحسن بن سهل أو إلى المأمون أو كلفاه بالكتابة عنهما لم تعد شيئاً يجرى عفو الخاطر، بل أصبحت بحثاً بأدق ما تدل عليه كلمة بحث، بحثاً في استقطار المعاني ن بحيث لا يفوت المعنى على إيجازه الدلالة الواضحة ابينة عن طائفة واسعة من الأفكار، وبحيث لا يفوت الألفاظ حمل المعنى وأداءه أداء يخلب الألباب. وزلعل من الخير أن نسوق طائفة من رسائله نستشف منها خصائصه البلاغية، فمن ذلك ما كتب به إلى الحسن ابن سهل يستتم صنائعه عنده[2]:

"أما بعد فإنك ممن إذا غَرس سَقَى، وإذا أسَّس بَنَى، ليستمم تشييد أسُسه، ويجنى ثمار غَرْسه، وبناؤك عندى قد شارف الدُّروس[3]، وغَرْسُك مُشْف[4] على اليبوس، فتداكْ بناءَ ما أسست، وسَقْيَ ما غَرَسْتَ، إن شاء الله".

---

١ الصناعتين ص ٦١

٢ معجم الأدباء ١٦/ ١٣٠

٣ الدروس: الإمحاء

٤ مشف: مشرف

وواضح تأنقه في الكتاب وتنميقه، حتى ليبنيه على السجع، وواضح أيضاً تدقيقه في اختيار الألفاظ، وأنه لا يعمد إلى الإطناب، إنما يعمد إلى الاقتصاد، مؤدياً بصورتين كل ما في نفسه، فصنائع الحسن عنده تشبه بناء، وضع أساسه، ولابد من متابعةى الإنفاق عليه حتى يرتفع في الجو وتقوم أركانه، أو هي تشبه غرساً، لابد له من تعهد بالماء والتربية حتى يشتد ويؤتى ثماره. ويقول إن الأساس قد أشرف على الامحاء والغرس قد أشرف على الذبول فلا تضن بالنفقة والتعهد عليها حتى لا يضيع ما أنفقت وتعهدت أولاً. أرأيت كيف أننا حين نعمد إلى فهم كلام ابن مسعدة نضطر إلى شئ من البسط والإطناب، وكأننا بإزاء صياغة تشبه صياغة الشعر الغنائى المركزة التي يثقلها ما تحمل من معان كثيرة في عبارات مسرفة في الإيجاز. ومع ذلك فالألفاظ واضحة غاية الوضوح، ولكنها مع وضوحها تحمل معانى غزيرة، مع قلة عدد الحروف والكلمات ومع سهولة الألفاظ وخفتها في النطق.

وقال أحمد[1] بن يسوسف: "دخلت على المأمون وفى يده كتاب، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة، ويصعد فيه بصره ويصوبه، فالتفت إلى وقد لحظنى في اثناء قراءته للكتاب، وقال: يا أحمد أراك متفكراً فيما تراه منى! قلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين من المكاره وأعاذه من المخاوف، قال: لا مكروه إن شاء الله، ولكنى أقرأ كتاباً وجدته نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة، فإنى سمعته يقول: البلاغة التباعد من الإطالة والتقرب من البغية والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى. وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا، ورمى به إلى وقرأته، فإذا فيه:

"كتابى إلى أمير المؤمنين، ومن قبلى من قواده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاه تراخت أعطياتهم، واختلت لذلك أحوالهم، والتأثت[2] معه أمورهم".

---

١ انظر وفيات الأعيان ١/ ٤٩٤ وقارن بزهر الآداب ٣/ ٢٤٩ والعقد الفريد ٢/ ٢٧٢.

٢ التأثت: اضطربت

فلما قرأته قال: إن استحسانى إياه بعثنى أن أمرت للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته. وفى رواية أخرى أنه قال لابن يوسف: لله در عمرو ما أبلغه ! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار ن وإعفائه سلطانه من الإكثار".

ولا ريب في أن عمراً تعب طويلاً في كتابة هذا الكتاب الموجز، حتى يقع على العبارات القليلة التي تؤدى إلى المأمون امتعاض القواد والجند من تأخر رواتبهم، وقد أخذ يحتال لإنبائه بهذا الخبر بحيث لا يضيق بهم وبحيث لا يظن أنهم عمدوا إلى شغب أو ما يشبه الشغب، فذكر أولاً أنهم مذللون له منقادون، وأنهم مستمسكون بعرى طاعته استمساكاً يستغرق قلوبهم كأحسن ما يكون استمساك جيش بطاعة خليقته، ثم أتبع ذلك بتأخر أرزاقهم ورواتبهم حتى أجهدهم ما تحملوه من هذا التأخر وحتى اضطربت أمورهم، ومثلهم- مع طاعتهم وانقيادهم- حرى أن يسد اختلالهم وأن يرعى لهم وفاؤهم- فتعجل رواتبهم وأرزاقهم. وكان للكتاب أثر بالغ في نفس المأمون إذ أمر أن تصرف للجند والقادة في الحال أعطياتهم، لا لشهر ولا لشهرين بل لسبعة أشهر متتابعة. ويقال إنه أمر بأن يعطى لعمرو ايضاً راتبه لثمانية أشهر جزاء وفاقاً لحسن عرضه للمسألة ودقة تلطفه في إيرادها وتصويرها.

ويروى صاحب[1] زهر الآداب أنه قدم على المأمون رجل من أهل الشام على عدة سلفت له منه بتوليته بلدجه، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون بما وعده به، فقصد عمرو بن مسعدة، وعرض عليه المسألة، وسأله إيصال رقعة إلى المأمون بها، فقال له: اكتب بما شئت، فإنى موصله. فتوسل إليه أن يتولى هو كتابة الرقعة عنه، حتى يكون له فضلان، فكتب عمرو:

"إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عدته من ربقة[2] المطل بقضاء حاجة عبده، والإذن له بالانصراف إلى بلده، فعل موفقاً".

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً، فأطلعه عليها وجعل يعجب من حسن لفظها وإيجاز المراد فيها، فقال له عمرو: فما نتيجتها يا أمير المؤمنين؟ قال " الكتابة له في هذا لاوقت بما سأل، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه، وبجائزة تفى دناءة المطل".

---

١ زهر الآداب ٤/ ١٥٨

٢ ربقة: عروة

وأكبر الظن أن المأمون لم يستحسن كلام الرقعة لدقة إيجازها وتعبيرها السريع عن مقصودها فحسب، بل استحسنها أيضاً للوصرة المبثوثة فيها، وكان ابن مسعدة كثيراً ما يعنى بالتصوير في كتابته على نحو ما مر بنا في رسالته للحسن ابن سهل. وبذلك تحول فن الرسائل عنده إلى عبارة موجزة كعبارات التوقيعات وإلى صور نادرة تستهوى القلوب بطرافتها ودقتها في التعبير عن المعنى الذي يريد تجسيمه. وكان يضيف إلى ذلك رقة في الشعور، هي رقة الكاتب المتحضر الذي أرهف ذوقه، والذى عودته آداب اللياقة الاحتياط فيما يورده على سمع الخليفة والوزير، بحيث ينال إعجابه واستحسانه. ويروى صاحب المثل السائر[1] أن رجلاً بني ضبة ضرع إليه أن يشفع له عند المأمون في الزيادة لمنزلته وراتبه المقجر له، فكتب إلى المأمون مستشفعاً له:

"أما بعد فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين - لتطولك[2] على - في إلحاقه بنتظرائه من الخاصة فيما ترزقون به، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى في مراتب المستشفعين، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته، والسلام".

وأعجب المأمون بدقة عرضه لشفاعته وإخراجه لها في معرض التعريض، تلطفاً، وإشارة من طرف خفى إلى حرمته منه، وما يختصه بالعطف والحظوة عنده. وبذلك كانت أوكد وسيلة وأوثق ذريعة لإجابة طلبه وشفاعته، مما جعل المأمون يوقع على الكتاب بقوله: "قد عرفنا توطئتك له، وتعريضك لنفسك، وأجبناك إليهما، ووافقناك عليهما".

وكان إيجازه المفرط مع دقته في أداء المعاني يروع المأمون روعة شديدة، ويروى أنه أحب يوماً أن يرى مدى مقدرته في هذا الإيجاز، فأمره أن يكتب إلى بعض العمال في العناية بشخص والاهتمام بأمره، وأن يوجز كتابه ما أمكنه، بحيث لا يتجاوز ما يكتبه سطراً واحداً، فكتب[3]:

"كتابى إليك كتاب واثق، بمن كتب إليه، معنى بمن كتب له، ولن يضيع بين الثقابة والعناية حاملة، والسلام".

---

١ المثل السائر ص ٣٩١

٢ تطولك: تفضلك

٣ وفيات الأعيان ١/ ٤٩٣.

ولا ريب في أن هذا الكتاب القصير- بل المفرط في القصر- يصور مدى ما كان يبذل ابن مسعدة من جهد عنيف في جمع المعاني الكثيرة وتركيزها في معنى يؤديها أجمل ما يكون الأداء، سواء بما يختار من لفظ أنيق أو صورة بديعة، وكأنه لا يصوغ كلاماً، وإنما يقطر من الكلام شذى فائحاً شديد التأثير في قارئه وسامعه.

وعلى هذا النحو تحولت الكتب عند ابن مسعدة إلى كلمات قصار، ككلمات التوقيعات، بل لعلها أشد قصراً، وأقوى منها حدة، وما نشك في أنه تأثر في هذا الاتجاه بالحكم الكثيرة التي ترجمت في عصره، على نحو ما نرى في الأدب الصغير والكبير لابن المقفع، وكأنه أاد أن يجعل كتبه أو على الأقل طائفة منها حكماً وأمثالاً تدور على ألسنة الكتاب والأدباء. وروى له ابن خلكان رسالة طويلة مسجوعة كتب بها إلى بعض الرؤساء، وقد أهمه وأحزنه زواج أمه، لينفس عنه، وما إن قرأها حتى سحره بيانه واعتذاره عن أمه وذهب عنه الهم والحزن، وشك ابن خلكان في الرسالة وقال إنها تنسب إلى ابن العميد، وهو محق في شكه، لسبب بسيط، هو طولها الذي لا نألفه عند ابن مسعدة، فقد كان يقبض يده عنه ولا يبسطها إلا على حروف معدودة محكمة.

٥

ابن[١] الزيات

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، اشتهر بابن الزيات، لأن جده أباناً كانا يجلب الزيت من مواطنه إلى بغداد متجراً فيه، وأصله من مقاطعة جيل جنوبى بغداد ومن قرية تسمى الدسكرة، وقد دفع ابنه عبد الملك إلى احتراف التجارة، وجد فيها حتى صار من تجار الكرخ[٢] المياسير، وولد له محمد سنة ١٧٣ ونشأ يحب الأدب، فأقبل ينهعل منه، كما ينهل من علوم اللغة ومن ينابيع الآداب الأجنبية الشائعة في عصره، حتى شدا الشعر ونبغ فيه كما نبغ في النثر. وحاول أبوه أن يصرفه عن هذا الاتجاه إلى التجارة المربحة فكان يصده، ويلزم الأدب وطلبه، ويلازم الدواوين محاولاً أن يلفت من فيها إلى مهارته الأدبية، وقال له أبوه يوما ص: "والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرنك، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفى، ولك ولأبيك فيه مال وجاه، وتطل بالآجل الذي لا تدرى كيف تكون فيه، فقال: والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه: أنا أم أنت، ثم شخص إلى الحسن بن سهل، فامتدحه بقصيدة، فأعطاه عشرة آلاف درهم، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه: لا ألومك بعدها على ما أنت فيه". ويقال إنه لما مدح ابن سهل ووصله بالدراهم المذكورة مثل بين يديه، وأنشده:

لم أمتدحك رجاء المال أطلبه ... لكن لتلبسنى التحجيل والغررا[٣]

وليس ذلك إلا أننى رجل ... لا أطلب الورد حتى أعرف الصدرا[٤]

---

١ انظر فى ترجمة ابن الزيات الأغانى (طبعة الساسى) ٢٠/ ٤٦ والفهرست ص ١٧٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغجدادى ٢/ ٣٤٢ والفخرى ص ١٧٥ والمسعودى ٤/ ٣٩ والطبرى ٧/ ٣٤٣ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ١٤٢، ٤١٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ٧٠

٢ الكرخ: محلة الأسواق والتجار ببغداد

٣ التحجيل: بياض فى قوائم الفرس. الغرر: جمع غرة، بياض فى وجهه. والاستعارة هنا واضحة

٤ الورد: ورود الماء. الصدر: اصدور والرجوع عنه

يشير بذلك إلى مأربه من مديحه، وأنه لم يمدحه طلباً للمال، وإنما مدحه طلباً لتعيينه كاتباً بالدواوين، وعينه الحسن بن سهل، فحقق له أملاً طالما كان يراوده.

ومضى ابن الزيات يختلف إلى الدواوين وهو يتابع مدارسته لعلوم اللغة والنحو، ويظهر أنه تزود منها زاداً وافراً، فقد ذكر الرواة أن ابا عثمان المازنى حين قدم بغداد كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في مسائل علم النحو، فإذا اختلفوا في مسألة يقع فيها الشك قال لهم: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب- يعنى ابن الزيات- واسألوه واعرفوا جوابه، وكانوا يفعلون، ويعرضون ما يجيب به على المازنى، فيرى أنه الصواب الذي يرتضيه، ويشرحه لهم ويقفهم عليه.

وعلى نحو ما كان عالماص باللغة والنحو كان شاعراً بارعاص، ومرت بنا في حديثنا عن الشعر مرثية لزوجه، وهى من روائع المراثى، وله وراءها مراث أخريف يها وأشعار كثيرة، كونت له ديواناً نشر في القاهرة، ومن يرجع إليه يجد شاعريته فياضة، كما يجد الشعر مذللاً له في المواقف المختلفة التي قد يصعب فيها على غيره ولا يسلس قياده. ويقال إنه لما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة حين عقد المأمون لعلى الرضا البيعة بولاية العهد، وتطورت الظروف على نحو ما قدمنا ولم يتم أمره استتر خوفاً من المأمون وانتقامه، وظل مستخفياً سنوات لا يعرف موضعه، حتى غذا ظهر وعفا عنه المأمون طالبه التجار بأموالهم التي كان قد اقترضها منهم فكان يقول: إنما اخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من فيئهم والأمر الآن إلى غيرى، وكان قد اقترض من عبد الملك بن أبان عشرة آلاف درهم، وكان إذا طالبه بماله لقيه بنفس الجواب، فنظم ابنه محمد قصيدة يصور فيها ثورته على المأمون مقارناً بينها وبين ثورة الأمين وما ناله من القتل جزاء غدره ونكثه، حتى يوغر صدر المأمون عليه، ويطير به طيرة سقوطها. ومضى بالقصيدة إلى ابن المهدي، فأنشدها له، وقال: والله لئن لم تعطى المال الذي اقترضته من أبي لأوصلن هذه القصيدة إلى المأمون، ففزع إبراهيم وجزع، وقال له متوسلاً: خذ منى الآن بعض المال، واجعل الباقى أقساطاً، ولا تظهر القصيدة ووفى كل منهما لصاحبه.

وما زال ابن الزيات يعمل في الدواوين حتى ولى مقاليد الخلافة المعتصم، فقربه منه ولم يلبث أن استوزره، ويقال إنه طلب حينئذ أن لا يلبس القباء[1] على عادة الوزراء وأن يلبس الدراعة[2] ويتقلد عليها سيفاً بحمائل، فأجيب إلى طلبه، ويحس بإقبال الدنيا عليه، فيفتح أبوابه للشعراء، ويجزل لهم في العطاء، ومن أهم مداحه كما مر بنا أبو تمام، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض أبيات من قصيدته التي صوف فيها قلمه وبلاغته. وكانت قد انعقدت أيما عمله في الدواوين صلة وثيقة بينه وبين الحسن بن وهب، فلما ولى الوزارة قدله ديوان الرسائل، وربما كان الجاحظ أهم أديب توثقت به صلته في وزارته.

وتوفى المعتصم وولى ابنه الواثق، فظل وزيراً له، ولعل من الغريب أن نجده في وزارته لهما جميعاً يعادى أحمد بن أبي دؤاد المعتزلى المشهور، وكان المعتصم جعله قاضى القضاة واتخذه كما اتخذ ابنه الواثق ناصحاً ومشيراً، ودب التنافس بينه وبين ابن الزيات، حتى انقلب إلى عداوة وتهاج بالشعر، وكان ابن أبي دؤاد يحرض الشعراء على هجائه ويصلهم، ويقال إن بعض الشعراء هجاه بقصيدة عدة أبياتها سبعون بيتاً، فبلغ خبرها ابن دؤاد، فقال:

أحسنُ من سبعين بيتاً سُدًى ... جمعك إياهن فغى بَيْتِ

ما أَحوج الناسَ إلى مَطْرةٍ ... تُذْهبُ عنهم وَضَرَ الزيتِ

وكان ابن الزيات لبراعته في الشعر يكيل لهع الصاع صاعين، فاضطرمت العداوة بينهما اضطراماً. وكانت في ابن الزيات قسوة شديدة قلما تؤلف في أمثاله من الأدباء الذين رزقوا دقة في الحس، ورهافة في الشعور، ويؤثر عنه أنه كان يقول: "الرحمة خور في الكطبيعة وضعف في المنة[3]، ما رحمت شيئاً قط". وبلغ من قسوته أن اتخذ تنوراً من حديد، وجعل فيه مسامير، ليعذب به المطالبين بالأموال من أرباب الدواوين، وكان في وزارته للواثق، يتجهم للمتوكل، وحاول أن يصرف الخلافة عنه إلى ابن الواثق، وطمح إلى إنفقاذ ذلك بعد وفاته، بينما تحمس ابن

---

١ القباء: ثوب فارسى قصير.

٢ الدراعة: جبة فارسية

٣ المنة: القوة

أبي دؤاد للمتوكل، فلما ولى الخلافة استوزر ابن الزيات أربعين يوماً ليطمئن، وظل ابن أبي دؤاد يغريه به لينكبه، حتى أصاخ له وقبض عليه وطالبه بالأموال، ولم يلبث أن أدخله التنور الذي صنعه، وقيده فيه بخمسة عشر رطلاً من حديد، وظل به أربعين يوماً يعذب عذاباً شديداً، حتى مات، وكان موته في آخر ربيع لسنة ٢٣٣ للهجرة.

ولم تدر لابن الزيات رسائل كثيرة في كتب الأدب، مع كثرة ما يدور فيها من رسائل موجهة إليه، وةيظهر أنه وكل في وزارته للحسن بن وهب كتابة الرسائل الديوانية والرد عليها، ومن القليل الذي احتفظت به تلك الكتب العهد للواثق على مكة، وقد كتبه بحضرة المعتصم على هذه الصورة[1].

"أما بعد، فإم أمير المؤمنين قد قلدك مكة وزمزم، ترثا أبيك[2] الأقدم، وجدك[3] الأكرم، وركضة جبريل، وسقيا إسماعيل وحفر عبد المطلب، وسقاية العباس، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على اهل بيته".

وابن الزيات يشير في هذا العهد المقتضب إلى قصة هاجر زوج إبراهيم عليه السلام حين ولدت ابنها إسماعيل منه، وغارت زوجة الثانية سارة، واضطرته أن ينزلها منزلاً بعيداً عنها، فأنزلها بوادى مكة الجدب، وذكر ذلك القرآن الكريم في قوله جل شأنه على لسان إبراهيم: (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم). وأعياهما أن يجدا ماء يستقيان منه، وبينما هاجر قد أخذها اليأس من وجوده إذا جبريل يهبط راكضاً على موضع، لا تلبث بئر أن تتفجر منه، هي بئر زمزم، فتستقى منه هاجر وإسماعيل. وتمر الأيام فتطمر البئر وتمحى معالمها وتظل مطمورة، حتى يلقى في روع عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفرها، وما إن ضرب بمعوله فيها حتى فاض الماء، واتخذها لسقاية الحجيج، وورث ابنه أبو طالب شرف هذه السقاية بعده وورثها عنه العباس أخوه جد العباسيين. وإلى كل هذه القصة

---

١ زهر الآداب ٤/ ١٦٠

٢ يريد بأبيه الأقدم: إسماعيل عليه السلام

٣ يريد بجده الأكرم: إبراهيم الخليل

يشير ابن الزيات في عهد الواثق، وكأننا نلتقى عنده بأسلوب ابن مسعدة المبنى على الإيجاز والاقتصاد في القول من جهة، وعلى التأنق في التعبير من جهة ثانية، تأنقاً يجره إلى السجع.

ويظهر أن ابن الزيات لم يكن يعمد إلى السجع دائماً، وكأنما كان يرى فيه مبالغة في التكلف، فقد احتفظ له ابن عبد ربه برسالة إلى أحد العمال تخلو من السجع، وهى تجرى على هذا النمط[1]:

"أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره، ولا تخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ولا يزيل لائمة[2]: إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة[3] لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب، وأية هاتين كانت منك محله النكر بك وموجبة العقوبة عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة[4] والأخذ بالحجة والتقدم في الإعذار والإنذار، وعلى حسب ما أقلت[5] من عظيم العشرة يجب اجتهادك في تلافى التقصير والإضاعة، والسلام".

والقصد إلى ا]جاز واضح في الرسالة ولكنه إيجاز من درجة ثانية غير درجة الإيجاز عند ابن مسعدة، فإيجاز ابن الزيات لا يتحول إلى ما يشبه التوقيعات والحكم والأمثال، إنما هو ضرب من الاقتصاد في التعبير، مع الاتساع في المعنى وبسط أطرافه قليلاً، ليحيط بكل ام يدور في نفس الكاتب، ومع الوفاء برصانة اللفظ وجزالته ومتانته، ومع الدقة في انتخابه واختياره، دون تكلف لجمال صوتى يجر إلى السجع أو إلى الازدواج الذي كان يستخدمه أحمد بن يوسف وسهل بن هرون وأضاربهما من الكتاب، ومما يصور ذلك عنده ما احتفظ به ابن عبد ربه من بعض فصوله مثل قوله[6]:

---

١ العقد الفريد ٤/ ٢٤١

٢ اللائمة: اللوم

٣ مظاهرة: مساعدة

٤ النظرة: التأجيل

٥ أقلت: نهضت

٦ العقد الفريد ٤/ ٢٤٠

"إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة وإحياء السنن الصالحة. فإذا أدى كل إلى كل حقه كان ذلك سبباً لتمام المعونة واتصال الزيادة واتساق الكلمة ودوام الألفة".

فالفكرة تؤدى في عبارة موجزة تلم بأطراف المعنى ولكن دون إسهاب أو إطناب، وجون محاولة لتحقيق اللذة الفنية عن طريق السجع والازدواج وما ينجو نحوهما، على شاكلة قوله في فصل آخر[1]:

"إن أعظم الحق حق الدين، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين، فحقيق لمن راعى ذلك الحق وحفظ تلك الحرمة أن يراعى له حسب ما رهاه الله به، ويحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه".

والرغبة في الإيجاز والاقتصاد في القول واضحة في هذا الفصل وخاصة فية كلماته الأخيرة. ولم تؤثر لابن الزيات رسائل شخصية نثرية، وكأنه كان يقدم الشعر على النثر في هذه الرسائل، لمطاوعته له وسهولته عليه، إذ تروى له كتب الأدب بعض رسائل إخوانية شعرية كان يتبادلها مع بعض أصدقائه وخاصة الحسن بن وهب، وقلما تجاوزت أبياته فيها عدد أصابع اليدين. ويروى أن ابن وهب مرض أياماً ولم يأته رسوله ولا تعرف خبره، فكتب إليه رسالة شعرية يعاتبه فيها، ورد عليه ابن الزيات برسالة شعرية أيضاً، يعتذر إليه متنصلاً من علمه بمرضه، وطالباً إليه التفضل بصفحة والتطول بعفوه، على هذه الشاكلة[2]:

دَفعَ اللهُ عنك نائبةَ الدَّهْـ ـرِ، وحاشاك أَن تكون عليلاً

أُشْهِدُ اللهَ ما علمتُ وماذا كَ من العُذْر جائزاً مقبولاً

ولعمرى أَن لو علمت فلا زَمْـ ـتُك حَوْلاً لكان عندى قليلاً

فاجعلنْ لى إلى التعلق بالعُذْ ر سبيلاً إن لم أَجد لى سبيلا

---

١ العقد الفريد ٤/ ٢٤٠

٢ أغانى (سشاى) ٢٠/ ٥٥

فقديماً ما جاد بالصفح والعَفْـ و وما سامح الخليلُ الخليلا

ويقول صاحب الأغانى إنه كان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب، ويسوق شاهداً على ذلك أنه "جلس يوماً للمظالم، فلما انقضى المجلس رأى رجلاً جالساً، فقال له: ألك حاجة؟ قال الرجل: نعم تدنينى إليك، فإنى مظلوم، فأدناه، فقال: أنا مظلوم، وقد أعوزنى الإنصاف، قال: ومن ظلمك؟. قال: أنت، ولست أصل إليك فأذكر حاجتى، قال: ومن يحجبك عنى وقد ترى مجلسى مبذولاً ؟ قال الرجل: يحجبنى عنك هيبتى لك وطول لسانك وفصاحتك واطرد حجتك، قال: ففيم ظلمتك؟ قال الرجل: ضيعتى الفلانية أخذها وكيلك غصباً بغير ثمن، فإذا وجب عليها خراج أديته باسمى لئلا يثبت لك اسم في ملكها، فيبطل ملكى، فوكيلك يأخذ غلتها وأنا أؤدى خراجها". وتمضى القصة فتذكر ان ابن الزيات رد على الرجل ضيعته ووهبه بعض المال ليستعين على عمارتها. وأبو الفرج إنما ساق القة ليدل على ما شاع عند معاصرى ابن الزيات من فصاحته وبلاغته ولسنه وقوة حجته.

خاتمة

تحدثت في هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول عن احياة السياسية وما اتصل بها من قيام الدولة العباسية وبناء بغداد وسامراءواتخاذهما حاضرتين متعاقبتين، كما تحدثت عن غلبة الطوابع الإيرانية على نظم الحكم وما ارتبط بها من دواوين ووزراء وتقاليد مختلفة. وقد مضى العلويون يقاومون أبناء عمهم العباسيين سراً وجهراً، بينما ضعف شأن الخوارج ضعفاً شديداً. ويعد أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى لدولة بني العباس، ويخلفه المهدي فيقضى على ثورات الخرمية وترتعد فرائص البيزنطيين أمام جيوشه في غير موقعة. ويعقبه ابنه الهادى لمدة قصيرة. ويتولى مقاليد الخلافة بعده أخوه هرون الرشيد، وعصره يعد أزهى عصور الخلافة العباسية، بما شاع فيه من رخاء، وقد محقت جيوشه الخوارج محقاً وسحقت البيزنطيين سحقاً. ويخلفه ابنه الأمين لسنوات قصيرة، ويتولى بعده المأمون، ويقود حركة عقلية واسعة ينتصر فيها للمعتزلة وقولهم بان القرآن مخلوق، بينما يقضى قواده على كثير من الثورات، ويقلم أظافر البيزنطيين مراراً، ويخلفه أخوه المعتصم فيقضى على ثورة بابك الخرمى، ويدق أعناق البيزنطيين دقاً في عمورية وغير عمورية، ويعقبه ابنه الواثق، وبه يختم العصر العباسي الأول.

وكانت بغداد وسامراء تحفل بالقصور الباذخة وتكتظ بالثراء، وصبت سيول منه في حجور المغنيين والشعراء والعلماء، مما أعد لنهضة واسعة في الفنون والآداب والعلوم، وشاع الترف في الملابس والمطاعم والمشارب كما شاعت أدوات مختلفة للترويح عن النفوس، وكثر الرقيق والجوارى وشغف الناس بالغناء وبضروب مختلفة من الظرف وتورط كثيرون في الخمر والمجون. وكان انتصار العنصر الفارسي على العنصر العربي في الثورة العباسية سبباً في أن بترز موجة حادة من الشعوبية، ورافقتها موجة حادة من الزندقة، جعلت المهدي ينصب ديواناً لتعقب الزنادقة ومحاكمتهم، ويبعث العلماء للرد على بهتانهم. وتغنى كثيرون بالزهد ورفض الدنيا ومتاعها الزائل، وتعالت اصوات الوعاظ والقصاص وأخذت تظهر مقدمات التصوف.

وقد حدثت امتزاج جنسى ولغوى وثقافى واسع بين الشعب العربي والشعوب المستعربة. إذ امتزجت به في السكنى والتزاوج وفى الأخلاق والعادات، واتخذت لغته لساناً لهم فترجم به عن ضميرها ومشاعرها وذات نفسها، وسرعان ما استوعبت تلك اللغة الثقافات التي كانت مبثوبة في

هذا المحيط الجديد سواء أكانت هندية أم فارسية أم يونانية أو دينية خالصة. ونشطت الحركة العلمية نشاطاً واسعاً، فشاع التعليم في الكتاتيب والمساجد وكثر العلماء في كل فن، وانتشر اقتناء الكتب والمكتبات الخاصة، وترجمت علوم الأوائل إلى العربية من هندية وفارسية ويونانية، وأنشأ الرشيد للترجمة داراً كبيرة هي دار الحكمة وألحق بها المأمون مرصداً فلكياً ضخماً. وأخذت توضع منذ أوائل العصر العلوم اللغوية: علوم النحو والتصريف والعروض ووضع أول معجم للعربية، وهو معجم العين المشهور. ونمت المصنفات التاريخية. وصنفت في الحديث النبوى كتب جامعة. وكثرت المصنفات في تفسير القرآن الكريم. ووضعت مذاهب الفقه الساسية: مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل. وأحكم المتكلمون أصولهم العقيدية وخاصة المعتزلة الذين تعمقوا في المباحث الفلسفية.

وازدهر الشعر، وحذق الشعراء الموالى لغته، واستوعبوا مقوماتها وخصائصها نافذين إلى أسلوب مولد جديد، اعتمدوا فيه على الألفاظ الواسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة البدو الجافية، أسلوب يموج بالجزالة والرصانة حيناً، وحيناً بالعذوبة والنعومة. واصطبغ شعرهم ومعانيه بحكم رقيهم الفكرى بطوابع عقلية دقيقة، وقد مكن لها المعتزلة بمباحثهم العميقة وطرقهم في الاستدلال وتوليدات المعاني وتفريعاتها المتشعبة. وظل الشعراء ينظمون في موضوعات الشعر العربي القديمة متطورين بها قليلاً أو كثيراً ن وبذلك حافظوا على شخصيته الموروثة، مع الوصل بينه وبين حياتهم الاجتماعية والعقلية والحضارية. وقد اضطرم المديح اضطراماً بما صوروا فيه من المثالية الخلقية والبطولات العربية والأحداث الكبيرة ن وبما أضافوا إلى عناصره البدوية القديمة من عناصر حياتهم الحضارية وملكاتهم العقلية. وتطور الهجاء بما أشاعوا فيه من روح الاستخفاف والسخرية المريرة والفكاهة السامة. وتحولوا بالفخر القبلى إلى فخر شعوبى محتدم. واتسعوا بالرثاء. فرثوا المدن المنكوبة والحيوان والطير. وتفننوا في الغزل بنوعية الإباحى والعفيف. وتبذلوا في شعر المجون والخمر. ونظموا كثيراً في الزهد. ونفذوا إلى موضوعات جديدة، إذ أفردوا قصائد لتصوير بعض المثل الخلقية أو تصوير الرياض ومظاهر الحضارة العباسية أو بكاء البصر والتفجع على فقده أو وصف بعض الغرائز كغريزة الغيرة أو وصف حياة الشظف والبؤس والمسغبة أو نظم بعض الفكاهات والنوادر. واستحدثوا فن الشعر التعليمي ونظموا فيه كثيراً من التاريخ والقص والمعارف والنحل المختلفة. وأكثروات من النظم على الوزان القصيرة والمجزوءة ونفذوا إلى اكتشاف أوزان المضارع والمقتضب والمتدارك أو الخبب، وإلى أوزان أخرى لم يستخدمها العرب قبلهم، غير أنه لم يكتب لها الشيوع لنقص

أنغامها بالقياس إلى الوزان الموروثة. وعرفوا وزناً شعبياً هو وزن المواليا. وجددوا تجديداً واسعاً في القوافي ونمط القصيدة، فاستحدثوا المزدوجات والرباعيات والمسمطات، ونظموا صورة تعد أماً للموشحات مما يدل على أنها ترجع إلى اصول عباسية.

وأعلام الشعراء في العصر بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام، فأمل بشار فكان فارسى الأب رومى الأم، وكان أكمه، وولد على الرق، ونشأ في البصرة نشأة عربية خالصة، فحذق اللغة وبرع في الشعر، وكان يجالس المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية، فاضطرب بين هعذه المقالات وصار إلى الشك ثم إلى الزندقة، واستظهر شعوبية آثمة. وهو يعد زعيم الشعراء المحدثين بما رسم لهم من التمسك بأصول الشعر التقلدية والملاءمة بينها وبين العصر ومجتمعه وحضارته وثقافته. وقد أكثر من الفخر الشعوبى الذميم، وأثر فقده لبصره واضح في غزله فهو في أكثره غزل حسى يصدر فيه عن الغريزة النوعية صدوراً يزرى بمروءة الرجل الحر الكريم مما جعل الوعاظ يذمونه ذماً شديداً. وأكثر أيضاً من وصف منجالس الخمر والغناء دون رادع من خلق أو دين إذ كان زنديقاً وقتل على الزندقة. وكان أبو نواس فارسى الأب والأم، ونشأ مثل بشار في البصرة، وتحول عنها إلى الكوفة مع شيطان كبير نفث فيه من غيه ومجونه وإثمه هو والبة، ورحل إلى البادية يتزود من ينابيع اللغة الأصيلة وعاد إلى البصرة ولزم مجالس اللغويين والمتكلمين والقصاص والمحدثين وعب من الثقافات الأجنبية عباً. ونزل بغداد وامتدح الرشيد والبرامكة، ورحل إلى مصر وعاد إلى بغداد فاتصل بالأمين. وشعره يجرية في اتجاهين: اتجاه تقليدى في المديح والرثاء واتجاه تجديدى في الهجاء والغزل والمجون والطرديات، وهو أكثر شعراء عصره مجوناً وإفحاشاً فيه. ومع إكثاره من الجهر بالفسق والمعصية يردد اعتماده على عفو الله ومغفرته، وهو- غير منازع- شاعر الخمرية على توالى العصور العربية بما ابتكر في صورها ومعانيها وما أشاع فيها من حيوية دافقة. أما أبو العتاهية فكان نبطياً ونشأ بالكوفة لأب يشتغل بالحجامة، وكان سيئ السيرة في صباه إذ انتظم في سلك المخنثين، وعمل مع أخ له في بيع الجرار وصنعها، واختلف إلى بيئات الرواة واللغويين والعلماء والمتكلمين، ولم يلبث أن أتقن العربية وبرع في الشعر فرحل إلى بغداد ومدح المهدي وتعلق بجارية من جوارى قصره تسمى عتبة ونظم فيها غزلاً كثيراً، ومدح ابنيه الهادى والرشيد، ويقبل على الخرم والمجون مفرطاً فيهما.

ويحدث انقلاب في حياته، فيتزهد ويلبس اصوف، ويظل متصلاً بالخفاء والحسن بن سهل وزير المامون حتى يبرح دنياه. وأشعاره تمثل حياته وما حدث بها من انتقلاب فهو في جانب منها يمدح ويتغوزل ويصف الخمر، وفى جانب يتزهد وينثر الحكم مع التفنن في المراثى، وتشيع في أساليبه سهولة

وليونة مفرطة. وكان يعاصره مسلم بن الوليد، وهو أيضاً ينتظم في عداد الموالى، وقد نشأ بالكوفة ثم انتقل إلى البصرة، وأكب على الشعر القديم وشعر بشار خاصة، حتى إذا لمع اسمه بين الشعراء المجيدين رحل إلى بغداد فمدح الرشيد وقواد الدولة ووزراءها وعمالها وولاه بأخرة الفضل بن سهل وزير المأمون بريد جرجان فظل بها حتى وفاته. واشتهر بتجويده لشعره والتدقيق في معانيه والعناية برصانة اللفظ وجزالته ونصاعته والإكثار من ألوان البديع. وأبو تمام الكطائى خاتمة هؤلاء الأعلام، وقد ولد بجاسم، وهى قرينة من قرى دمشق، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة، فرحل إلى حمص، ثم إلى الفسطاط، وعاد إلى الشام وتردد بينها وبين الرقة والموصل، ثم هبط بغداد، ورحل عنها إلى خراسان، ثم عاد إليها، وتحول عنها مع المعتصم إلى "سر من رأى" ولزم بابه وأبواب وزرائه وكبار رجال الدولة، وظل وثيق الصلة بابنه الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب، وولاه الأخير بريد الموصل وسرعان ما وافته منيته. وشعره يفيض بثقافات عصره العربية والأجنبية وخاصة الثقافة الفلسفية والكلامية، واشتهر بأنه صاحب مذهب جديد، يقوم على التدقيق في المعاني والأخيلة والتعمق فيهما تعمقاً قد يفضى إلى الغموض، كما يقوم على استخدام ألوان البديع، حتى لا يكاد يخلو منها بيت من أبياته، بل حتى لتتوهج فيها توهجاً.

وكثر حينئذ شعراء السياسة والمديح والهجاء، فكان هناك شعراء الدعوة العباسية الذين ينافحون عن العباسيين زاعمين أنهم أصحاب الخلافة الشرعيون، ومن أشهرهم أبو دلامة نديم السفاح وغيره من الخلفاء، ومروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر اللذان وجها شعرهما نحو الدفاع عن حق العباسيين في الخلافة وإنكار حق العلويين فيها والرد عليهم رداً عنيفاً. وكان شعراء الشيعة يدافعون بدورهم عن حق العلويين في الخلافة، يجهرون بذلك كلما سنحت لهم الفرصة ويخفونه كلما أشفقوا على أنفسهم من العباسيين، ومن أشهرهم السيد الحميرى وكان كيسانى العقيدة لا يرى بأساً في مديح الخلفاء العباسيين، كما كان لا يخفى حبه للعلويين وأكثر من تغنيه بمناقب على بن أبي طالب وذم قاتلى الحسين وثلبهم. ومثله منصور النمرى الشيعى الإمامى، وكان يمدح العباسيين ويأخذ جوائزهم ويتفجع على قتلى آل البيت وحقوقهم المهدرة في الخلافة ومثلهما دعبل، وكان يعلن تشيعه إعلاناً صريحاً، وتشكك أبو العلاء المعرى في صدقه وقال إنه كان يريد التكسب بإعلان تشيعه. وكان ديك الجن مخلصاً في تشيعه، غير أن ما أثر من شعره الشيعى قليل. وكان البرامكة بحوراً فياضة، فنظم الشعراء فيهم كثيراً من المدائح، وفى مقدمتهم أبان بن عبد الحميد اللاحقى مترجم كليلة ودمنة شعراص، وأشجع بن عمرو السلمى، وله قصائد طنانة فيهم وفى انتصارات الرشيد على نقفور إمبراطور بيزنطة ،. وكان

كثير من الوزراء والقواد والولاة يجزلون العطاء للشعراء، فدبجوا مدائح كثيرة فيهم، على نحو ما يلقانا عند أبي الشيص شاعر عقبة بن جعفر الخزاعى والى الرقة بالموصل، وعبد الله بن ايوب التيمى شاعر يزيد بن مزيد قائد الرشيد، وعلى بن جبلة شاعر أبي دلف العجلى قائد المأمون، والخريكى شاعر عثمان بن خزيم المرى والى أرمينية. وبرع في الهجاء شعراء كثيرون. من امثال أبي عيينة المهلبى وكان يكسر في هجائه من الإقذاع الشديد، وعلى شاكلته عبد الصمد بن المعذل وكان هجاءً شكساً حديد اللسان.

وتكاثر شعراء الغزل بنوعيه النقى العفيف والمادى الصريح، وكان النوع الصانى اكثر شيوعاً لكثرة الجوارى والإماء، وخير من يصور النوع الأول العباس بن الأحنف الذي عاش يتغنى بالغزل العذرى الطاهر. أما النوع الثانى فخير من يصوره ربيعة الرقى وغزله يسيل عذوبة. وكان شعراء المجون والزندقة كثيرين كثرة مفرطة لما شاع من فساد الأخلاق وكثرة النحل والمقالات والمذاهب الدينية والفلسفية ومن أشهرهم حماد عجرد، وكان يخلط مجونه بزندقة أشربتها روحه. ومنهم مطيع ابن إياس وهو من أثكر الشعراء مجاهرة بالفسق والعصيان. ومنهم صالح بن عبد القدوس ولم يكن ماجناً، ولكنه كان زنديقاً كبيراً، إذ كان يعتنق عقيدة الثنوية المانوية مجاهراً بها، ومجادلاً مناظراً إلى أن أمر الرشيد بضرب عنقه، وجمهور شعره أمثال وحكم. وكان غير شاعر يأخذ نفسه بحياة زاهدة ناسكة، على نحو ما نجد عند عبد الله بن المبارك ودعوته إلى الجهاد في سبيل الله وإلى التقوى واجتناب الآثام، وعند محمد بن كناسة الكوفى وتغنيه طويلاً برفض الدنيا ومتاعها الزائل، وعند محمود الوراق ودعوته إلى طاعة الله والرضا بقضائه والتوكل عليه والقناعة بكفاف العيش مع التفكير الدائم في الموت والفناء. وشارك المعتزلة في الشعر وفنونه، وكان منهم من ينظم في نفس الأغراض التي ينظم فيها الشعراء من حوله مثل العتابى الذي يروع قارئه بمعانيه الطريقة، ومثل النظام الذي يصبغ أشعاره في الغزل وغير الغزل بصبغة كلامية واضحة. ومنهم من كان ينظم في حوار أهل الملل والنحل مثل بشر بن المعتمر وكان يكثر من الحديث عن عجائب الله في خلقه. وصور نفر من الشعراء في أشعارهم النزعات الشعبية صادرين عن روح العامة وأحاسيسها، وخير من يمثلهم أبو الشمقمق وكان يستخدم في شعره أحياناً ألفاظ العامة، مجسماً فقره وبؤسه ومسغبته وأسماله البالية، وكثيراً ما يعرض ذلك في صورة فكهة.

وتطور النثر في هذا العصر وتنوع وكثرت قفنونه بما ملأ أوانيه اللفظية من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وما استوعبه من صنوف العلوم وذخائر الفلسفة، وقد انبرى المتكلمون معتزلة

وغير معتزلة يبحثون في الأسس التي تقوم عليها براعة القول وبلاغته، واقتبسوا كثيراً مما سجلته الأمم القديمة من أصول البايين. وعنى كتاب الدواوين هم الآخرون بفصاحة الكلام وبلاغة القول، مما جعلهم يتحولون بدواوينهم إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة، وحقاً ضعف شأن الخطابة السياسية والحفلية، غير أن الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعاظ وقصص وقصاص ازدهرت ازدهاراً عظيماً، كما ازدهرت المناظرات وخاصة في بيئة المعتزلة إذ كانوا يكثرون من حوار زعماء الفرق والنحل في المساجد ومجالس البرامكة ومجالس المأمون ن مثيرين ما لا يحصى من دقائق المعاني وخفيات الأدلة، وبلغ من إتقانهم للجدل وقدرتهم على الإقناع وفغحام الخصوم أن نفذوا كثيراً- بقصد إظهار المهارة الجدلية- إلى تقبيح الأشياء المستحسنة وتحسين الأشياء المستقبحة، مما هيأ لظهور كتب المحاسن والمساوى. واتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما اتصل بها من عهود ملوك الفرس ووزرائهم ورسائلهم إلى العمال ووصاياهم وتوقيعاتهم، وكان لذلك أثر بعيد فيما كان يصدر عن الخلفاء والوزراء ويدبجه الكتاب من رسائل وعهود ووصايا وتوقيعات. وكان الكتاب يحرصون في هذا النثر اديوانى الرسمى على بلاغة القول والتفنن في الأفكار والنمعانى، ويلقانا في عصر كل خليفة كتاب ذاع صيتهموطكارت شهرتهم كل مطار. وازدهرت حينئذ الرسائل الإخوانية، إذ تناول كثير من الكتاب الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء من ثناء وشكر وهجاء وذم وعتاب واعتذار واستعطاف وتنهنئة وتعزية، وأخذوا يجبرون فيها رسائل شخصية مفتنين في أساليبها البيانية وما يصورون به امن عواطفهم وأهوائهم. ونفذ نفر منهم إلى كتابة رسائل أدبية طريفة تتناول النفس الإنسانية وعواطفها وسلوكها وحياتها العاملة وما يهديها سبيل الرشاد. وأخذ بعض الكتاب البارعين يحاكون ما نقله ابن المقفع وغيره إلى العربية من القصص الحيواني والرسائل السياسية الفارسية.

وأعلام الكتاب في العصر ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات. أما ابن المقفع فكان فارسى الأصل ونشأ بالبصرة في ولاء آل الأهتم، وهم بيت فصاحة وخطابة، فحذق العربية، وعمل في دواوين العراق آخر زمن بني أمية، ثم في دواوين سليمان بن على وعيسى بن على عمى المنصور، وكان لا يزال مجوسياً فأسلم على يد الأخير. وأغرى به المنصور سفيان بن معاوية والى البصرة، فقتله. وقد اشتهر بترجمته عن لغته بعض كتب الأدب الفارسي وكتاب كليلة ودمنة الهندي الأصل وبعض منطق أرسطاليس. وكان آية في البلاغة وحسن الأداء وفصاحته، على نحو ما يتضح في الأدب الصغير والأدب الكبير وكتناب اليتيمة ورسالة الصحابة، وهى جميعاً تفيض بالوصايا السياسية والاجتماعية والخلقية. وتعد ترجمته لكليلة ودمنة من روائعه الفذة. وله رسائل

إخوانية وأدبية بديعة. وكان سهل بن هرون مثله فارسى الأصل ن وعكف على الآداب الأجنبية، وشارك في الترجمة عن لغته الأصلية، ويقال إنه كانت فيه نزعة شعوبية، وكان فيه ميل إلى التندر، ووظفه الرشيد بخزانة الحكمة التي أنشأها، وقربه المأمون وجعله خازناً لبعض اقسامها. وكان من أفراد عصره في البلاغة والبيان وصحة المنطق، وعنى بتأليف قصص حيوانى على شاكلة كليلة ودمنة، وهو يملؤه بالتربية السياسية والاجتماعية والحكم والأمثال على شاكلة كتابه "النمر والثعلب". ومن رسائله الأدبية الطريفة رسالته في الاحتجاج للبخل. ورسالته الأخرى في نصرة الزجاج على الذهب. وله رسائل شخصية بديعة. ومن أهم ما يميزه عنايته بدقة معانيه وتوفير الازدواج والجمال الصوتى لألفاظه وأساليبه. أما أحمد بن يوسف فكان من بيت كتابة، إذ كان أبوه يوسف بن صبيح ممن ذاع صيتهم في دواوين القرن الثانى، وقد عنى بتأديب ابنه وإعداده للعمل في الدواوين. وسرعان ما استخلصه الفضل بن سهل للمأمون، فجعله على ديوان الرسائل، ثم اختاره وزيراً له، وظل على وزارته حتى توفى. وكان واحد زمانه في الكتابة الديوانية، ومن أروع رساله السياسية رسالة الخميس التي كتبها في تأييد الدعوة العباسية، وثقافته الكلامية واضحة في تحميدها إذ تحول به إلى ما يشبه مبحثاً كلامياً في الدلالة على وجود الله ووحدانيته وحدوث الخلق وفناء العالم. وله رسائل شخصية يتضح فيها ما يتضح في رسائله الديوانية من تأنق التعبير. حتى ليمكن أن يقال إنه هو الذي أعد في قوة لأن يشيع في النثر الديوانى الرسمى أسلوب الازدواج والترادف الصوتى وما يجرى فيه أحياناً من السجع. وكان عمرو بن مسعدة مثله من بيت كتابة، إذ كان أبوه مسعدة يلى ديوان الرسائل للمنصور، وقد أحكم تأديبه وتثقيفه، وتلقفه جعفر بن يحيى البرمكي، فاتخذه كاتباً للتوقيع بين يديه، وغرس فيه شغفه بالإيجاز والتأنق في التعبير، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر نفسه. والتحق بدواوين المأمون، حتى إذا رفع أحمدج بن يوسف إلى الوزارة أقامه مقامه على ديوان الرسائل وظل يليه إلى وفاته. وتتميز كتابته الديوانية بالاقتصاد المسرف حتى كان يضرب به المثل في الإيجاز، وهو يضيف إليهع ميلاً شديداً إلى التأنق والتنميق. وكان ابن الزيات من بيت تجارة ن غير أنه نشأ محباً للأدب فأقبل على التزود بعلوم الغلة وكنوز الآداب الأجنبية والعربية، حتيبرع في الشعر والكتابة جميعاً، وسرعان ما التحق بدواوين المامون، ومازال نجمه في صعود، حتى استوزره المعتصم، وظل وزيراً في عهد ابنيه الواثق والمتوكل إلى أن نكبه الأخير نكبته المشهورة. وكان لسناً بليغاظص ولم يكن يصدر في بلاغته ولسنه عن تكلف، وإنما كان يصدر عن طبع مهذب دون قصد إلى التأنق المسرف أو التنميق المفرط، وكان يحرص دائماً على فصاحة اللفظ وحسن الأداء مع الجزالة والنصاعة.

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

في الدراسات القرآنية
الوجيز في تفسير القرآن الكريم
الطبعة الثانية ٢١١٢ صفحة
* سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
عالمية الإسلام
الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة
الحضارة الإسلامية في القرآن والسنة
الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة
معجزات القرآن
الطبعة الأولى ٢٦٠ صفحة
في تاريخ الأدب العربي
* العصر الجاهلي
الطبعة الثالثة والعشرون ٤٣٦ صفحة
* العصر الإسلامي
الطبعة العشرون ٤٩٦ صفحة
* العصر العباسي الأول
الطبعة الخامسة عشر ٥٧٦ صفحة
* العصر العباسي الثاني
الطبعة الثانية عشرة ٦٦٠ صفحة
* عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية- العراق- إيران الطبعة
الرابعة ٦٨٨ صفحة
عصر الدول والإمارات
الشام الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
* عصر الدول والإمارات
(مصر) الطبعة الثالثة ٥٠٤ صفحة.
* عصر الدول والإمارات
(الأندلس) الطبعة الثالثة، ٥٥٢ صفحة
* عصر الدول والإمارات.
(ليبيا- تونس- صقلية)
الطبعة الأولى ٤٤٨ صفحة.
*عصر الدول والإمارات
الجزائر- المغرب الأقصى- موريتانيا-
السودان
الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية
* الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الثالثة عشرة ٥٢٨ صفحة
* الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة

* التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة العاشرة، ٣٤٠ صفحة
* دراسات في الشعر العربي المعاصر.
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
* شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة، ٢٨٨ صفحة
* الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة الثانية عشر ٣١٢ صفحة
* البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة، ٢٣٢ صفحة
* الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
الطبعة الخامسة، ٣٣٦ صفحة
البحث الأدبي:
طبيعته- مناهجه- أصوله- مصادره
الطبعة الثامنة، ٢٨٠ صفحة.
*الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور.
الطبعة الثانية، ٢٥٦ صفحة

* في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى، ٢٧٦ صفحة
* في الشعر والفكاهة في مصر
الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة
في الدراسات النقدية
في النقد الأدبي
الطبعة الثامنة ٢٥٢ صفحة
فصول في الشعر ونقده
الطبعة الثالثة ٣٦٨
في الأدب والنقد
الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية
البلاغة: تطور وتاريخ

* النقد
الطبعة الخامسة، ١١٢ صفحة

الطبعة الحادية عشر ٣٨٠ صفحة

المدارس النحوية

الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة

تجديد النحو

الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة

تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده

الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحات

تيسيرات لغوية

الطبعة الثانية ٢٠٠ صفحة

تحريفات العامية للفصحى

الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة

في مجموعة نوابغ الفكر العربي

ابن زيدون

الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

* الرثاء

الطبعة الرابعة، ١١٢ صفحة

* المقامة

الطبعة السابعة، ١٠٦ صفحات

الترجمة الشخصية

الطبعة الرابعة، ١٢٨ صفحة.

الرحلات

الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة

* في التراث المحقق

* المغرب في حلي المغرب لابن سعيد

الجزء الأول- الطبعة الرابعة، ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني- الطبعة الرابعة، ٥٧٢ صفحة

كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثالثة، ٧٨٨ صفحة

* كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثالثة، ١٥٢ صفحة

*الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر.

الطبعة الثالثة، ٣٥٦ صفحة

السيرة النبوية

* محمد خاتم المرسلين

الطبعة الأولى ٤٠٨ صفحة

في سلسلة "اقرأ"	
* مع العقاد الطبعة الخامسة	* معي (١) الطبعة الثانية
* البطولة في الشعر العربي الطبعة الثانية	* معي (٢) الطبعة الأولى
* الفكاهة في مصر الطبعة الثالثة	القسم في القرآن الكريم الطبعة الأولى